رحلات شاب مسلم

دكتور محمد محمد الجوادى

رحلات شاب مسلم

الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

إهـداء

إلى أخى عبد الوهاب
ارجو أن يقوى عزمه
وألا يشبع نهمه

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

هل يكون من الممكن أن استأذن القارىء فأذكر له أنه لم يدر بخلدى من قبل أن أكون كاتب أدب رحلات ؟ أم أنى أسأل المعذرة لقلمى إذا لم يكن فى إمكانه أن يصل مع القارىء فى الصفحات القادمة إلى مستوى كان يأمله حين بدأ قراءة هذا الكتاب ؟ أم أمضى مع بارقة الأمل التى لا تفتأ تظهر لى — ولو على فترات متباعدة — فأحس فى تلك السويعات أن قد يكون هناك نفع يرجى من هذه الصفحات .

بمثل هذه البارقة الضعيفة كان الحافز الذى دفعنى إلى أن أنشر على بعض الناس هذا اليوم هذه الصفحات أو هذه الفقرات المتباعدة مع اعترافى أن قدر الفن أو التفنن فيها قليل وقليل جداً . ولكن الذى يجعلنى أنظر اليها بحنان أكبر هو ذلك الصدق الذى كان يسيطر على جوارحى وهى تسطر هذه الذكريات فى حينها ، وقد كنت حين أكتبها قد فرغت لنفسى لا أسمع إلا هاتفها الداخلى ، وهى بعيدة عن بيئة ألفتها وعهدتها ، محاطة ببيئات أخرى متنوعة فى أقصى الشرق أو فى أقصى الغرب ، تحت الجليد أو فوق السحاب تعانى من زمهرير البرد أو الحر مع أنها تتقيه بما نشرت التكنولوجيا من أجهزة التكييف .

كنت إذن أسجل لهذه النفس الضعيفة انطباعاتها حين تخلو إلى هذا القلم فتملى عليه ما أملته عليها الطبيعة ، وما أُمِلته هى من الطبيعة .. وكيف تفاعل الإملاء مع الأمل .. وكيف أفرز تأملها شيئا ذا بال أو غير ذى بال على الإطلاق .

* * *

كان من حظى أن أخرج إلى العالم من حولنا مرة وراء مرة ، ومع أنى خرجت فى سن مبكرة إلا أن هاتفاً داخلياً كان يسيطر على أن استغل كل ساعة كنت فيها فى الخارج لأمتد إلى بقاع جديدة من الأرض .. كنت أواجه مراراً مشكلة تأشيرات الدخول إلى الحد الذى جعلنى أتمنى لو كان لمصر مهابة جواز السفر الأمريكى الذى تفتح له الأبواب .. وكنت أواجه ضيق الوقت المتاح أمام ترتيب برنامج أية زيارة من هذه الزيارات .. وكنت أواجه مصاعب بيروقراطية لا أول لها ولا آخر .. ولا أنكر أنى كنت كثيراً بل غالباً — ما أواجه ضيق ذات اليد على الأق أن تفى بغرض ذات النفس .. وكنت أواجه كثيراً جداً من

مصاعب الحياة التي يواجهها الناس حين أزور بلادهم .. أو التى يواجهها الناس حين يزورون بلاداً غير بلادهم .

ولكننى مع ذلك كله كنت أسعد ما أكون حظاً .. كان الإعلام (الدولى) المتقدم فى جملته خير لى على تنظيم برامجى ، وحشد هذه البرامج بالكثير من الأعمال والزيارات ، وكان من السهل استكشاف كثير من الأحداث والاجتماعات والمقابلات فى آن واحد ، وكان من اليسير الوصول إلى كثير من الأفراد والهيئات بإقل الجهد متى استطاع الانسان فى سعيه نحو تحقيق ذلك كله أن يضع قدمه على الطريق الصحيح للمعلومات فى عصر المعلومات .

من دون الدخول إلى التفاصيل التى هى محل الصفحات التالية يكفى أن يعلم القارىء ، أن فى وسع المرء على أى رصيف فى الولايات المتحدة الامريكية أن يسأل عن عنوان شخص فى الولايات المتحدة كلها فى أى بلد إذا استعمل — مجانا — التليفون القريب منه . ما عليه إلا أن يدير رقم الكود الخاص بهذا البلد (والأرقام فى العادة موضوعة على لوحة فى كشك التليفونات الذى لا يخلو منه رصيف فى طول الولايات أو عرضها) وأن يُتبع هذا الرقم برقم استعلامات التليفونات وهو موحد لكل البلاد ، وعندئذ يستمع (أو تستمع) الموظف ، ويدق حروف الاسم على مفتاح الكمبيوتر فيظهر على الشاشة للفور رقم تليفون هذا الشخص وعنوانه !! .

وإذن فقد لا يكون مطلوباً من المرء اليوم — أو غداً — فى عالمنا المعاصر إلا أن يعرف كيف السبيل إلى قنوات المعلومات ، وعندئذ سيكفيه أنه يحفظ الحروف الأبجدية للغة بالترتيب .. فسوف يجد الفهارس كلها تبعا للأبجدية وأمام (المداخل) فى الموسوعات أو الأدلة أو الفهارس سوف يجد كل ما يطلب .

* * *

قد لا يكون من حقى أن أنصرف بالقارىء إلى نصائح ، ولكن حياتنا الإنسانية اليوم توجب علىَّ أن أقوم بهذا الواجب مع ما قد يظن من قلمى المغامر أنها مشاعر غرور أو ترفع .. فلنتوسط فى الأمر ولنقل أنها مجرد ارشادات تمليها

التجربة .

وإذا كان الأمر كذلك فليسمح لى القارىء أن اؤكد له ما يعرفه سلفا من أن خير ما ينبغى لنا أن نعلمه لأنفسنا هو حب المعرفة ، وكيف السبيل إلى المعرفة .. فإذا أحسسنا أنه لم يكن لنا نصيب كأمة أن نستمتع بهذا الحب ولا بالرغبة إليه بالقدر الكافى فلننصرف إلى الجيل القادم لا لنعلمه هذا ولكن لنعمل على ألا يحرم من هذه الفرصة .

ولقد يشاركنى بعض القراء الرثاء إلى حقيقة أن الطالب الذى يجهل طريقة الكشف فى معاجم اللغه العربية كلية ، جملة وانتهاء ، لن يناله من الخسارة بمنطق الدرجات إلا درجة واحدة (على الأكثر) فى امتحان الشهادة الإعدادية العامة !! ولكنى أريد لهؤلاء أن يكون عزاؤهم أن الذين يستطيعون سوف ينالون من متعة الحياة فى عصر المعلومات متعة المعرفة .

سوف يدرك هؤلاء وهؤلاء وسوف أعاود أنا نفسى الادراك أن إنساناً أوتى القدرة على التعامل مع المعلومات والوصول إلى الجزئية الصغيرة وسط هذا الخضم الكبير ، سوف يكون أسعد حالا وأهنأ بالا من الذين أتيحت لهم الخبرة المرة تلو المرة .

لم تعد الحياة اليوم سواء فى الرحلات أو فى غير الرحلات تحتاج إلى الخبرات الشخصية المحدودة ، ومع هذا فإنها إذا احتاجت إليها فلن تحتاجها بقدر عشر معشار ما نحتاج إلى طريقة التعامل مع المعلومات .

ولقد يقال إن طالباً فى المدرسة الاعدادية اليوم إذا وعى ما فى عدد أسبوعى من المجلات العامة ذائعة الانتشار فانه يكون قد حصل من العلم أضعاف ما كان يعرف الجهابذة عن العلم فى العصور الوسطى .. ولقد يكون هذا قريباً جداً إلى الصواب .. غير أن الحقيقة ، وهى التى تفوق الصواب المجرد فى قضية من القضايا ، تبقى غير ذلك بكل تأكيد .

تستطيع أن توافق الذين يقولون بفقدان الايمان أو أن تساير الذين يقولون بضياع الفلسفة فى غمار السرعة أو أن تحترم وجهه نظر الذين يقولون إن البعد الثانى قد طغى على البعد الثالث ، فحلت الكثرة محل العمق والسعة محل

التعمق .. ولكنك مع هذا تبقى مع نفسك وهى تؤمن تمام الإيمان أن البحث عن طعامك بدءاً من مكوناته فى الأسواق شىء ، وأن مجرد التهامك طعاماً جاهزاً فى غمرة وليمة كبيرة شىء دونه بقليل .. مع أن طعامك قد لا تتعدى اصنافه أصابع اليد .. ومع أن الوليمة قام عليها آلاف القوم وقام بها آلاف آخرون .

وقد تكون خلاصة القول أن صنع (التجربة) ، حين يشارك المرء منا فيها بكل ما أوتى من قدرة هو السبيل الأمثل إلى السعادة بما ينال المرء فى هذه الحياة فى خضم الأحداث التى تأتيه ويأتيها !

* * *

ولقد يكون من حق الذين يفخرون بالتقدم الذى يسير مع الزمن أن يعددوا للناس أفضال العصر الحاضر على العصر الماضى .. ولعل العصر الذى نحن فيه هو صاحب أكبر معدل فى سرعة التغير (كما يقول أهل الرياضيات فى علوم التفاضل) بالنسبة للعصر السابق عليه .. ومع هذا فإن سعادة الأهلين فيه لا تفوق — ولا حتى تصل إلى — سعادة آبائهم !!

ومع أن السعادة شىء أكبر من أن يكون هو الشعور بمستحدثات التكنولوجيا والعلم لخدمة الحياة اليومية على سبيل المثال .. إلا أن السعادة بهذا الجانب ذاته أيضاً لم تتنامَ عما كانت عليه من قبل .

قد نكون وقد افتقدنا شيئاً ما أو أشياء كثيرة فى غمرة انشغالنا بأنفسنا وبالناس من حولنا !! وقد صرنا نسمع خبر مصرع كنيدى بعد دقيقتين من وقوعه بينما لم يسمع الأقربون بنأ مصرع نابليون إلا بعد أيام تعدت الأسبوع .. قد يكون هذا الشىء هو الخبرة الشخصية .. وقد يكون أكثر من هذا هو التأمل فى الخبرة الشخصية .. وقد ندرك الخبرة ولا ندرك الوقت للتأمل فيها حين نكون ذبنا بين الجماعة أو فى الجماعة .. وقد يتاح للمرء حين يكون وحيداً فى تجربته ثم وحيداً لتأملها أن يبدأ فيكتب ثم يتدارك ما كتب ليخرج منه بالعبرة أو بالفلسفة أو بالروح أو بالإضافة إلى الروح .. ولعلى ولم أصل بالتأكيد الى هذه المرحلة الاخيرة أكون قد استفدت من هذه الوحدة فى تسجيل صفحات هذا الكتاب .

ومع أن هذا الكتاب لم يفلح فى أن يعرض على الناس صورة ناجحة لما يدور فى االقاءات أو المؤتمرات الدولية على اختلاف مستوياتها .. إلا أن المؤلف يود لو شجع كتابه هذا كل من يخرج إلى العالم الكبير ليكتب لجمهورنا العريض ـــ والخاص على حد سواء ـــ عما يدور فى هذه المجتمعات .

وسوف تواجهنا خرافة التخصص ، يقول الناس ما للناس ولمؤتمر عن البيئة .. ونحن لا نريد للناس أن يقرأوا العموميات فى كل مؤتمر من باب التسطيح ولكن من باب الإلمام بما يدور فى كل مجال مهما دق شأنه فى تصورنا .

ومن الغريب جداً ـــ ولكنه واقع ـــ أن معظم سياساتنا (سواء كان ذلك مدعاة للأسف أو مدعاة للفخر) قد نبتت بذورها فى فكر صانعيها حين كانوا يقرأون قراءة عابرة .. أو ينظرون نظرة عابرة .. ولما كنا غير متأكدين (حتى الآن) من أننا فى المستقبل سوف نعمد إلى وسيلة أخرى فى اختيار القيادات وأولى الأمر الذين يأتون فى الغالب بعيداً عن تخصصاتهم الدقيقة (الضيقة) فلا بأس من أن تتسع قاعدة الثقافة التى تتهيأ منها الجرعات الصغيرة التى تصوغ التصورات فى العقول الباطنة لأصحاب القرارات .

* * *

لم أكن أقصد أبداً حين كنت أكتب هذه الملاحظات أن أعطى صورة كاملة أو شبه كاملة عن تلك البلاد ، بقدر ما كنت أقصد تسجيل أقوى انطباعاتى ، وإنى لمتأكد أن هذه ليست بالانطباعات التى تعطى المتعة ، لأنها ليست انطباعات فنان مرهف الحس أو قوى الخيال ، وإنما هى انطباعات (طالب علم) أو مهنى لي فى نسيج حياته كثير من الفن أو الجمال أو الخيال .. بالعكس فقد تكون حياته أقرب إلى الخلو من هذه المعانى أو تلك المباهج !

ومع هذا فمن قال إن القارىء يبحث فى المقام الأول عن المتعة ، أو على الأقل أليس هناك فريق من القراء لا يضعون المتعة فى المقام الأول حين يقرأون !

ومع هذا فإن هذا الكتاب لا يدفع مؤلفه إلى أمل كبير فى رضا هذا الفريق

عن سطوره التى ليست كلها بالجد الخالص . فيكن فى هذا الكتاب من اختلاف طبعه واضطراب حركة القلم فيه وتعدد الزوايا والرؤى ، وتباعد الصور فى الزمان والمكان ما هو كفيل بإرضاء القارىء عن المؤلف وكتابه .

* * *

تتناول فصول هذا الكتاب الأربعة بعض ذكرياتى الوقتية عن بعض المواقف فى رحلتين . أولاهما فى الهند سنة ١٩٨١ وقد ذهبت إليها بعد أن قرأت فى الوقت السابق مباشرة لرحلتى كتاب اللواء عبد المنصف عن « بلاد البقرة المقدسة » وكتاب الدكتور عبد المنعم النمر عن « تاريخ الاسلام فى الهند » وكتاب الاستاذ الدكتور حسين فوزى « السندباد » ، وقد أهدانيه قبل سفرى مباشرة متمنياً لى التوفيق ، بعد ما قصَّ علىَّ كثيراً من الطرائف التى صادفها فى رحلته الأولى إلى الهند مما لم يسجله بالطبع فى كتابه .. وكانت الديمقراطية فى مصر يومها تسلك طريقاً تكثر فيه المطبات الصناعية باسم الحفاظ على أرواح الديمقراطية فكان لا ينى يعود فى أثناء الحديث إلى انطباعاته عن الديمقراطية فى الهند (بلاد غير المسلمين) والهند الاسلامى (الباكستان) .

كان الرجل يتكلم بكل ما يملك من معلومات وصلات شخصية بالناس هناك وقراءات موسوعية معاصرة ، وكان يتكلم أيضاً وهو الذى عاش الهند كلها قبل الاستقلال الباكستانى ، وكان يريد أن يؤكد أن العلماء المسلمين فى الهند فى ظل الديمقراطية وفى ظل حكم أغلبية غير مسلمة أسعد حالاً من إخوانهم فى الباكستان بسبب غياب الديمقراطية .

وعلى قدر ما كان يريد أن يؤكد هذا كان الدكتور فوزى ـــ أطال الله عمره ـــ يريد أن يتأكد من هذا ، ولا أظن أن الايام القليلة التى قضيتها هناك كانت كافية لى لأخرج بحكم فى مثل هذه القضية الصعبة .. ولكنى مع هذا لم أكن لأقاوم الانطباع الذى تسرب إلى نفسى ـــ بحكم دراستى الطبية ـــ من أن الحديث عن الديمقراطيات فى بلاد لا تحتمل هزاتها العنيفة هو أشبه ما يكون بعلاج سكتة مخية غير معروفة السبب أدت إلى شلل نصفى مفاجىء بالهيبارين الذى يسيل الدم !! مع أن سبب هذه السكتة قد يكون نزيفاً فتضيف

بعلاجك إلى المأساة أبعاداً أخرى بل بعبارة أدق تضاعف المشكلة .

وليس من شك أن الهيبارين أو العقار الذى يسيل الدم هذا كفيل بحل المشكلة إذا كان سببها هو الوجه الآخر للعملة وهو التخثر حين تتكون خثرة فى الوعاء الدموى فتعوق سريان الدم عن مركز المخ الأمر الذى يكون من نتيجته حدوث ما حدث ..

دعونا إذن نتصور المسألة فى الديمقراطية وفى الوسائل الأخرى للحكم بغير الديمقراطية على هذا الأساس ، على أساس أنها وسيلة لعلاج ، أو وسيلة لاصلاح أو حتى وسيلة للحكم !

إذا ادركنا هذا الأمر برأنا من ذلك الشرك الأكبر الذى يقع فيه البعض بحب الديمقراطية ثم تقديسها ثم عبادتها آخر الأمر أى الوقوع فى الشرك الأكبر .

ولا أستطيع أن أقول إن الدكتور فوزى كان ولو للحظة قصيرة من الذين تنزلق أقدامهم إلى هذه المصيدة ولكنه كان بلا شك مدفوعاً بكل ما أوتى من خبرات السنين إلى الاطمئنان على خط يستقيم معه التقدم لهذا الوطن .

ومع هذا فلا أجدنى قادراً على تجاوز هذه النقطة بالذات من دون أن أشير إلى ذلك الاعتقاد الذى قد يسيطر على الذين يتابعون مقالات الأستاذ مصطفى أمين حين يجدون الرجل بعد السنوات الطوال يجعل من الديمقراطية الكلمة السحرة التى معها تحل المشكلات وفى غيابها تتعقد بل وتحدث النكسات ..

ولست فى حاجة إلى أن أقول إن كلامى فى هذا الشأن هو الذى يبرىء الرجل الكبير من الوقوع فى هذا الشرك أو هذا الشرك ، فإنى اعتقد أن الذين يدركون طبقات المعانى يفهمون بوضوح حقيقة موقف أعلامنا الوطنيين .

إنما يهمنى أن أضع للقارىء بعض الملامح التى جذبتنى من صورة بلاد هى على ما أعتقد صاحبة أكثر الأنظمة الديمقراطية اكتمالا فى العالم الثالث . ومع اعترافى بأن هذه الملامح لا تشكل لوحة بالمعنى الفنى ، التركيبى أو التشكيلى أو حتى الجمالى .. إلا أن طموحى يهىء لى أنها سوف تترك انطباعات

صادقة عن هذه البلاد بعد تجربة طويلة (نسبية) مع الديمقراطية الهندية .

لا أحب أن أقول إن الديمقراطية هى المسئولة عما فى الهند اليوم من نجاح يتمثل فى اعتماد كبير على النفس أو على الجهة الأخرى مصاعب كثيرة فى الحياة اليومية ، ولكن الذى أحب أن أسجله هو أن الهند صاحبة الديانات التى تعدت الآلاف ، لم ترفع الديمقراطية بعد إلى هذه الدرجة .. أريد أن اقول لم تقع بعد فى هذ الشرك ، لم تعبد الديمقراطية مع أنها تعبد البقرة .

ولا أحب أن أقول إن الهند تعانى من الديمقراطية ، فمن الصعب أن تحكم على دواء بمضاعفاته الجانبيه من دون أن تشير إلى ما كان يحدث فى غياب العلاج بهذا الدواء .

ولكنى الذى أحب بالتأكيد أن أقوله هو أن قواعد (اللعبة الديمقراطية) فى الهند محترمة إلى حد بعيد ! فإذا كان الأمر كذلك فهنيئا لهؤلاء الناس بالدواء الذى اتخذوه لحياتهم السياسية !!

لست أحب أن أكرر على (مسامع) القارىء ما حدث من سقوط انديرا وفوز انديرا وانشقاق حزب المؤتمر إلى حزبين وما إلى ذلك ولكنى أريد أن أؤكد له أن الهنود جميعاً مقتنعون بالنظام ، سواء كان الديقراطية أو غيرها .

وحتى النظام فى محطات الاتوبيس ، هو الأمر الذى يضطرهم إلى الوقوف فى صفوف قد يبلغ عددها ثلاثمائة شخص أو يزيد حتى ينال كل حقه !! حقه فى الوقوف فى أتوبيس أكل عليه الدهر وشرب ينقله بعد نهايه يوم عمل شاق أو غير شاق إلى حيث ينام فى كوخ — أو بيت من الصفيح على أطراف العاصمة .

ويريد البعض أن يؤكد لك أن الهنود ورثوا النظام من الاستعمار الانجليزى .. ومع ما قد يكون فى هذا القول من تجاوز فى حق الهنود إلا أن طبائع الصفات البشرية تدافع عنهم حين تنبئنا بكل يقين أن الصفة لن تترعرع ما لم يكن هناك استعداد لها .

وقد رأيت من النظام الهندى فى مصر قبل أن أزور الهند ما يؤكد أن النظام متأصل فى هؤلاء القوم .. ولقد ذهبت يوما حفلاً لجمعية الصداقة كان

فى وسع السفير الهندى بالقاهرة أن يتخلص منه ، ومن سوء الاحوال الجوية فى ذات اليوم بسهولة فإذا به قبل موعده قد أخذ مكانه !

ثم رأيت من النظام الهندى فى البلاد العربية والأوربية ما دعم اعتقادى فى نفع الديمقراطية مع هؤلاء القوم رغم كل الفقر الذى يعيشون فيه ، وذلك بسبب النظام الذى يعيشون به ! ومضت الايام وقد ازددت اقتناعاً بقول الرجل المحنك الذى كان يقول كنت فى شبابى أهتم بالحرية (أو بالديمقراطية) وصرت فى شيخوختى اهتم بالنظام ، فقد اكتشفت أن النظام كفيل بكل حرية .. أو فى عبارة أخرى أن الحرية هى احدى منتجات النظام !!

قد أكون قد أطلت على القارىء فى حديث زيارتى للهند قبل أن أذكر له أن هذه الزيارة كانت لتمثيل بلدنا فى مؤتمر نظمه الاتحاد الدولى للشباب والبيئة I.Y.F بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للبيئة UNEP وفرعه الهندى للتعليم والتربية البيئية للشباب ، وقد كان من حظى أن اتولى فى أعقاب هذا المؤتمر مسئولية لجنته الدولية فى مجال تلوث البيئة بالضوضاء "Noise Pollution" لمدة عام ، أعددت فى خلالها بحثاً بالانجليزية كان فحواه برنامج عملى لقياس هذا التلوث بواسطة شباب البيئة أنفسهم ، وهو البحث الذى افتتحنا به القسم الانجليزى بالعدد الأول من مجلة البيئة لجامعة الزقازيق (الزوكى) فى يونيو ١٩٨١ ، ثم إنى تقدمت للمؤتمر الدولى العشرين للصحة المهنية الذى انعقد فى هيلتون القاهرة فى سبتمبر ١٩٨١ ورقة عن مصاعب (أو مخاطر) المهنة التى يواجهها رجال المرور العاملون فى مدينة القاهرة الكبرى ، كانت بلا شك من ثمار المعلومات البيئية التى اتيح لى أن اتزود بها خلال هذا النشاط العلمى والاجتماعى الهادف فى آن واحد .

أما فى الولايات المتحدة الامريكية فقد انتهزت فرصة دعوة صغيرة ، ونظمت برنامجاً (كبيراً) لعدد من الزيارات ، والمؤتمرات والندوات ، وقد حضرت من هذه عدداً لا يستهان به ، بل قد يروع من لا يعرف أمريكا أن يتصور أنه فى الامكان لزائر عابر يقيم عشرين يوماً أن يلم بكل هذه المناشط فى مجالات البيئة ، والشيخوخة والتقدم التكنولوجى ، والجمعية الأمريكية لعلم

النفس ، وندوات عقاقير جديدة ، ومكافحة إدمان الكحولات ... الخ .

وفى إيطاليا حضرت ندوة لمعهد الدراسات المتقدمة لحلف الاطلنطى حول « تراجع الإصابة بتصلب الشرايين » كنت أقدر لها أن تكون أقرب إلى « طب القلب » من « علم الباثولوجى » فإذا بها أقرب إلى « علم الباثولوجى » من « طب القلب » ولكنها مع ذلك أقرب إلى قلبى من « علم الباثولوجى » على كل حال .

أما زيارة (الامبراطورية) فجاءت كما تجىء الصدفة السعيدة المبالغة فى الإسعاد ، إذ بينما كنت أحصل على الإذن بالسفر للخارج من الجامعة جاءنى مظروف كبير ، كان عندى من الوقت ما ساعدنى على فضه وتصفح محتوياته فإذا هى ندوة منظمة جداً جداً ، كل شىء بالدقيقة والسنتيمتر !! ثم إذا ببصرى يقع فى سرعة على ورقة بها أسماء المشاركين ، قالت لى نفسى — أو قلت لها — لنر من أى الدول هؤلاء الناس ، فإذا مصر من هذه الدول ، وإذا محمد الجوادى هو الذى من مصر ، وأمامه فى خانة الملاحظات أنه لم يبعث بعد موافقته النهائية على الحضور ! وأنه يمثل الجانب الذى تمثله الصحة فى البيئة Enuironmental Impact & Health وكان على المشاركين أن يتوجهوا إلى القنصليات البريطانية ومكاتب شركة الخطوط البريطانية فيبروزا لهم هذه الاوراق ليحصلوا على تأشيرة الدخول وعلى تذكرة الطيران ، وفى القنصلية البريطانية أكرمونى غاية الإكرام ، وسارعت بإرسال تلكس أنى قادم ، وفى أمريكا استصدرت التذكرة التى ذهبت بها إلى شمال بريطانيا ليسعدنى الحظ مع الذين وضعوا تقريراً عن تصوراتهم للبيئة فى الثمانينات .

وسوف يجد القارىء فى هذه الصفحات تصويراً لكثير من الشخصيات سواء الذين تتلمذت عليهم فى هذه المؤتمرات العلمية أو الذين زاملتهم ، وقد يكون من المحتمل أن تخصص الكاتب فى السير قد طغى عليه أو تملكه ، ولكن من المؤكد أنني حين فعلت ذلك كنت أعبر عن مدى التقدير والإيمان بدور البشر فى المجتمعات التى أكتب عنها ، ومن الصعب أن نصف الأشجار والطرق والسيارات والأسواق والمبيعات والجو المسافات والطبائع والغرائب ولا نتأمل فى الناس .

هى أنماط من البشر إذن تمثل بلادها بقدر أو لا تمثلها على الإطلاق ، ولكن الانطباع الذى يتولد فى الأذهان عن هذه البلاد ليس له شأن بمدى صدق هذا التمثيل .. فإذا أحسَّ القارىء هذا فليأخذ فى اعتباره أن يكون هو فى كل حياته سواء رآه الاجانب أم الاقربون نموذجاً لما يجب أن يكون عليه صورة المواطن ينتمى إلى بلاده ، ذلك أننا لا نصنع حاضرنا فحسب ، ولكننا نصنع مستقبلنا وأمانينا من حيث لا ندرى فى بعض الاحيان .

* * *

وليس هذا مجالا لأقصَّ على القارىء قصه رحلاتى ، فقد يكون لها موضوع آخر ، وبحسبى أن أذكر أن الله سبحانه وتعالى قد كرمنى بزيارة كينيا والسعودية والكويت وألمانيا الغربية وبرلين الشرقية وفرنسا بالإضافة إلى البلاد التى يتحدث هذا الكتاب عن زياراتى لها : الهند وأمريكا وإيطاليا وبريطانيا .

وقد زرت ألمانيا الغربية أربع مرات كنت فى كل مرة أسعد من غيرها لا من التى قبلها فحسب ، كما أتيحت لى فترات عظيمة فى عاصمة النور فى المرات الثلاث التى زرت فيها فرنسا ، أما فى موطن النور ومبعث النور فقد أكرمنى الله بحج بيته الحرام وزيارة قبر رسوله ثم زرت جامعة الرياض أسبوعا فيما بعد العيد .. واجتاحتنى هناك تلك المشاعر العلوية التى لا يعرف الانسان كيف تأخذه وكيف تتركه .

ولقد كان أملى أن يتاح لى أن اكتب كل هذا الذى رأيت وكل ما مرَّ بى ، ولا يزال هذا الأمل قائماً فقد كتبت رؤس أفكار ذلك كله فى مذكراتى ،

لا أحب أن أترك الفقرة الماضية تمضى دون أن أقرر حقيقة أنى فى صحبة الزملاء سعدت بصحبتهم أيما سعادة وفى غياب الرفقة سعدت نفسى بالخلو إلى قلمها تملى عليه هذه الصفحات التى هى وليدة اللحظة والبيئة التى تتحدث عنها .

ولكنى آثرت لهذا الكتاب الذى يخرج اليوم أن يكون كما وصفت فى أول هذه المقدمة كله من تلك الانطباعات التى كنت أخلو إلى نفسى فيسجلها لها قلمى حين كنت وحيداً فى تلك الأسفار .

* * *

وإذن فلا أدرى أيهما كان فيه حظ القارىء سفرى مع الرفقة الكريمة أم سفر نفسى مع قلمها .. لعل هذا هو السؤال الذى أطمع فى إجابة عليه من القارىء الكريم حين يخلو هو الآخر إلى نفسه بعد أن يقرأ ما شاء الله له أن يقرأ من هذا الكتاب .

دكتور محمد الجوادى
نائب أمراض القلب
كلية طب الزقازيق والقاهرة
٢٧ ش الدق ت : ٣٤٨٣٩٨٠

الباب الأول : **الهند**

أول مااستقبلنا من الهند بعد مغادرة باب الطائرة كان هذه الاسطوانة التى تنقلك من الطائرة إلى مكاتب المطار وقاعاته مباشرة ، شيء يدل على التقدم الذى لم يصل بعد إلى بعض المطارات !! ، على أن السيولة التى أتاحتها هذه الإسطوانة فى حركة القادمين قد توقفت بفعل بطء الإجراءات التى يمر بها الراكبون .

بعد فحص تأشيرة الدخول كان علينا أن نمر بالقسم الصحى ، هناك وجدت اثنين من الأخوة العرب يتطلعان إلىَّ فى شوق شديد ، شوق الحاجة ، كنت قد علمت بأميّتهما حين طلبا منى ونحن فى الطائرة أن أكتب لهما كارت الدخول ، هاهم الآن فى حاجة إلى من يترجم لهم ، وليس فى الأمر شيء يصعب على الفهم ، فالمطلوب هو تلك البطاقة الصفراء التى تدل على تطعيم الفرد ضد العدوى أو ما يحل محلها ، وفى وسع كل إنسان أن يفهم ماهوالمطلوب منه فى هذا المحل عندما يرى مَنْ أمامه ومَنْ خلفه يُبرزون هذه البطاقة للسلطات . إنما كان الأخوة العرب يريدون شيئاً من الإعتذار لأولى الأمر ، ولم أكن بحاجة إلى أن أبدأ هذا الفصال ، فقد تكاثر عدد هؤلاء القادمين بدون هذه البطاقة ، وأحسست من مناقشتى مع المساعدين الصحيين أنهم سيتركونهم لكثرتهم فطمأنت الأخوة العرب وانصرفت .

كان من سبقونى إلى إتمام الإجراءات لايزالون فى إنتظار حقائبهم ، وإذ لم تكن لى حقيبة غير التى فى يدى ، فقد توجهت مباشرة إلى الصالة (الخضراء) للخروج ، وفى شيء من الثقة بالنفس قدمت نفسى إلى الرجل المسئول وأخبرته أنه ليس معى إلا هذه (السمسونيت) ، وأنى أريد الانطلاق إلى مقر المؤتمر ، ورحب الرجل بى ، وسألنى على الطريقة التى تكون بين الشرفاء حين يأخذون على بعضهم العهود : هل فى الشنطة أو معك شيء من الممنوعات ؟ (وهى كثيرة جداً هنا) ، فقلت له : لا وانصرفت .

* * *

وما أن صرت على باب المطار بانت لى أشباح الفقر ، عشرات عديدة من الهنود يقفون بلا عمل ، هم مستعدون لحمل الحقائب ، أو لتغيير النقود ،

أو لإرشادك إلى التاكسى ، مع أن الشمس فى السماء ، والعداد بارز منه ، أو للتسول ، أو لأشياء أخرى !! .

ووجدت أمامى فى الناحية الأخرى من الشارع الذى يمر أمام باب المطار ، حجرةً وحيدةً كان النصف الأعلى من جدرانها من الزجاج ، فحدست أنها للاستعلامات أو الأمن ، لاشك أنها تناسبنى للسؤال .

ألقيت بنفسى عل أحد الكراسىّ فى الحجرة وسألتهم أن يدلونى على أسرع (لا أرخص ، ولا أريّح ، ولا أجمل) السبل للوصول إلى (كاراد) ، كان هناك لحسن الحظ رجل متمكن أراد أن يشرح لى شفاهة ، فطلبت إليه أن يكتب فى ورقة حتى استعيد الاسماء بدقة .

ولم يكن فى المكتب ورق لذلك ولا لشبه ذلك ، إنما كان عندهم ورق استمارات ردىء طبع وجهه ، وكتبنا على ظهره ، مظهر من مظاهر الفقر جديد فى بلد يصنع الفقر ، ولكنه فقر مظاهر لافقر جواهر على كل حال .

كان الرجل متمكناً ، وكانت عقليته منظمة فرتب السبل حتى إذا جاء عند البدائل فرع لها التفريعات من الأصول .

أحاول ركوب الأتوبيس إلى المطار القومى (لأننا الآن لانزال فى المطار الدولى !!) فيفوتنى الأتوبيس غير مرة لأنى لا أدرك أنه الأتوبيس ، وكيف بك تجد ميكروباسات ليس لها مايميّزها ولا مايوحدها ، ولا مايعرِّفُها على أنها وسيلة لهذا الغرض إلا أصابع هؤلاء الواقفين بلا عمل إلا أن يرشدوا إلى هذه الأتوبيسات ، ولم يكونوا واحد ولا إثنين بل سبعة على ما أظن .

ركبت الأتوبيس إلى المطار القومى فمضى بى مسافات طويلة طويلة ، كان شبح الفقر يزداد كلما مضينا بالأتوبيس ، بل من ساعة ماركبته ، فهذا مواطن هندى جاء بالطائرة من بلد آخر لايحمل معه سوى حقيبة من ذات الخمس كيلوات من مسحوق اللبن(نيدو) .

يالله !! لم يتح لى شعورى أن أسأل الرجل لم أتى بهذه ؟ وكيف ؟ ، ومائمنها ؟ ، وما الفرق بين ثمنها داخل الهند وخارجها ، هذا إذا كانوا يسمحون بدخولها .

وهذا راكب ثان كانت معه حمولات ذات حجم كثير ووزن خفيف ، فراش الرجل ، وكان الفراش متواضعاً ، لو كان لأوربى لأستغنى عنه ووضعه فى الشارع قبل يومنا هذا بعشر سنوات .

ولم يكن فراش الرجل وحده هو الذى قضى عمره الافتراضى منذ سنوات عشر ، وإنما كان هذا الأتوبيس ، صوت عال واهتزازات مستمرة ، كراسى بلا تنجيد ، شبابيك بلا زجاج ، أرض لاتعرف لها وجهها ، وباب ليس له أصل من فصل .

إنما يعنينى بالإشارة هنا الى هذه الظاهرة الملفتة فى كل أتوبيسات الهند حين تجدها جميعاً وقد وضع بين السائق وبين الركاب حاجز تام بحيث لايدخل من الباب الأمامى إلا السائق ولا من الباب الخلفى إلا الركاب ، وقد يكون بين السائق والركاب نافذة فى هذا الحاجز أو شبه نافذة .

هل يكون فى هذا الحل الأمثل لإراحة السائق من هذا الزحام الذى يضغط عليه فى ساعات الذروة — وفى غير ساعات الذروة ، فيكون من الخطر تكالب الركاب عليه وعلى عجلة القيادة التى تتحمل بالكاد اهتزازات الأتوبيسات مع أنها هى التى تحركها هكذا مهتزة ؟

* * *

وفى المطار القومى بحثت عن الأتوبيس الذى يذهب إلى وسط المدينة ، فعلمت فى النهاية أنه يأتى على رؤوس الساعات ، وكانت ساعتى العاشرة وخمس دقائق ، ولم تكن أمامى فرصة للانتظار لساعة كاملة يضاف إليها ما يتأتى من بطء الأتوبيس أو إحتمال عدم مجيئه ، هذا إذا ما أهملنا الأهم فى ديناميكيات الزمن باقترابنا من ساعات الذروة مع مرور الوقت .

بحثت عن التاكسى فتكالبوا علىّ ، أكثر من عشر سائقين ، كلهم يدعوننى للركوب وأنا أحاول الاتفاق على أجرة ، فلا يقبلون بأقل من خمسين روبية فقلت توكلت على الله .

عداد التاكسى يعد فيمشى بسرعة كبيرة ، وكنت أظنه يعد الروبيات فتبين لى أنه يعد بأعشارها ، غير أنى فهمت ذلك ، وجدت أنه سيكون مظلوما بهذا

العدد ! ومازلت فى هذه الحيرة بين الروبيات وأعشارها حتى إذا وصلنا إلى مقصدى أخرج السائق تسعيرة توضح العلاقة بين قراءة العداد ، وبين الأجر المطلوب ، فوجدتها تقريبا ثلاثة أضعاف مايسجل العداد ! وسألت فقالوا إن العدادات مضبوطة على تسعيرة قديمة ، وتزيد التسعيرة فصلا بعد فصل ، فيجعلوا لها هذه الجداول ، لأنه من الصعب عليهم إعادة ضبط العدادات على المعايرةCalibration الجديدة . بالله عليهم (لاعليك) أين تكنولوجيا هؤلاء العلماء فى أمر بسيط كهذا !!

* * *

لاتسألنى عن هذه الأكواخ المتراصة التى مضينا بينها فى شوارع بومباى ، ولا عن الشوارع الضيقة القذرة ، ولا عن هذه التاكسيات والمركبات التى ليس بينها جميعا سيارة واحدة تزهو بأنها لازالت وليدة (أو صبية أو شابة) أغلب ظنى أن تكون أحدث هذه السيارات من انتاج عشرين سنة مضت تقريبا ، غير أن هموم الزمان والأعباء فى الهند ، قد ذهبت بشبابها ، وأتت لها بالشيخوخة قبل الأوان .

* * *

الطريف هنا أن عجلة القيادة ببعض العربات على اليمين ، وفى البعض الآخر على الشمال ، ويكاد هذان البعضان أن يكونا متقاربين ٦٠٪ و ٤٠٪ أو ٦٥٪ و ٣٥٪ وهذا وجه المشكلة ، فالإنسان يستطيع أن يفهم أن تكون العربات كلها فى نظام عجلة القيادة إلى اليمين أو إلى الشمال على حسب الطريق ، والإنسان يستطيع أن يفهم تجاوزاً معقولاً فى هذه القاعدة ١٪ أو ٢٪ أو حتى ٥٪ أما أن تصير الأمور إلى ماصارت عليه فى الهند من هذه النسبة التى تجعل النصف هكذا والنصف هكذا فشىء غريب ، ولكنك سوف تعتاد عليه فى الهند ، وسوف تجد أنه أمر طبيعى فى بلد فيه ألف ديانة وخمسين لغة و .. قومية ...إلخ ، ولوكان بوسعهم إذن أن يجدوا لعجلة القيادة مكاناً آخر لفعلوا ! وسوف تحمد الله أنهم لم يجعلوها فى الوسط مثلا وهو شىء طريف قد يأتى يومه !! ولو كان فى الإمكان أن يكون لعجلة القيادة مكان آخر غير

اليمين أو اليسار ، لوجدت من هذا النوع فى الهند ، مايتيح لك أن تشهد بتعدد النظائر إلى حد كبير يليق ببلاد الألف ديانة .

إنما الطريف فى هذا الأمر أن تجلس مضطجعاً على نحوٍ ما فى كرسيك

الخلفى أو الأمامى فتجد أنك تناوش الراكب المناظر لك (كذا) ، أو أن السائق يحتك بالسائق المقابل له .

* * *

كل هذا من مظاهر الفقر والذل لم يذهب بنفسى إلى الدرجة القصوى من الاشمئزاز التى كانت عندما لاحظت ظاهرة الحفاء . ظاهرة رهيبة تذهب عن الإنسان بانسانيته ، وآدميته ، وهم لايقفون حفايا ، وإنما يمشون ويسيرون وليس الحفايا بالقلة ، ولكنهم كثرة كاثرة ، وراعنى أكثر أن أستقبل هذا المنظر فى طريقى من المطار إلى واحدة من أعظم وأكبر مدن العالم ، ميناء الهند ومدينتها الثانية ..... إلخ .

ولايزال التاكسى ينتقل بى إلى درجات أحط من سوء العيش ، ويتحول الحفاء إلى شبه عراء ، كل هذا فى ضواحى (لاحظ ماتعنى كلمةالضواحى من الهدوء والجمال والرقى مع البقاء على مزايا المدينة) بومباى .

* * *

وأحياناً تأتى بنا السيارة على كورنيش ثم لاتلبث أن تدخل منه إلى ماليس بكورنيش ، والإنسان يستمتع بالسير على الكورنيش ، ولكنه فى بومباى يستاء فى بعض الأحيان إذ تزكم أنفه رائحة كريهة جداً آتية من بعض الخلجان (كأنما انتقل خليج نابولى إلى هنا) فلا يكون فى وسعه إلا أن يغلق أنفه ، ويتنفس من فمه .

على أنك لاتزال تضيف إلى رصيد الفقر بما ترى من مظاهر : فهذا منظر يتكرر ، ويتكرر جهاراً نهاراً لمختلف نوعيات البشر ، قد نزلوا إلى الماء يستحمون .

ثم تمل المناظر المتكررة فتتأمل فى العربات ، فتجد التاكسيات أمامك ،

وقد شحنت حقيبتها بأكثر مما تتحمل ، حتى أصبح الباب لايغلق عليها إنما يربط برباط من الحبال المفتولة ، وتجد من هذا المنظر الكثير .

* * * *

وإذ وصلت إلى (محطة كاراد) أو (كاراد المحطة) بعد عشر ساعات من السفر الشاق ، أخذت بمبدأ « فى التأنى السلامة » ، وذهبت إلى ناظر المحطة فقدمتُ له نفسى ، وطلبت إليه أن يتصل تلفونياً باللجنة المنظمة للمؤتمر ، واتصل الرجل بالتليفون فأعطوه رقماً آخر يطلبه ، واتصل بالرقم الآخر فأعطوه رقماً ثالثاً ، وإتصل بالرقم الثالث فأعطوه رقماً جاء معه الفرج ، وكان رقم الفندق الذى يقيم فيه الأعضاء ، وجاءنى أحدهم على التليفون ، وطلبت إليهم أن يبعثوا إلىّ بمن يأخذنى ، وانتظرت فى حجرة مخصصة للإنتظار أو فلنقل أنا ما يناظر استراحات الدرجة الأولى فى المحطات المصرية الكبرى ، وكانت بها مرآة ، فأصلحت من شأن نفسى ، وربطت رباط العنق ، وانتظرت حتى جاءنى شاب له ملامحنا الشرقية ، وسرعان ما علمت أنه من إيران ، وسر هو الآخر عندما وجد متاعى يقتصر على الحقيبة السمسونيت ، وكان سر سروره أنه أتى بموتوسيكل من النوع الصغير ليس فيه محل لأى شىء غير الحقيبة التى (جلست) بيننا على الكرسى الوحيد .

وعبرنا المحطة فلم أجد تاكسيات ـــ على الرغم من أنه فى كاراد تاكسيات ستوصف بعد قليل ، ولكنهما حنطوران كان ينتظران الفرج .

وانطلقنا من كاراد ’’ المحطة ‘‘ إلى كاراد المدينة فقد كانت المحطة بعيدة إلى حد ما عن المدينة على نحو ما يحدث أحياناً فى محطة السكة الحديد التى تسير فى خطوط شبه مستقيمة ، ولا تسير فى خطوط كتلك التى قامت عليها المجتمعات العمرانية (القرى أو المدن) من قبل تبعاً لظروف أخرى .

واستقصيت فى الطريق من الأخ الإيرانى ما أردت أن أعلمه عن كاراد وكليتها وجامعتها ، ونسب أتباع الديانات فيها ... الخ .

حين وصلنا إلى الفندق جاءنى الرئيس والزملاء مرحبين ، وجاءنى مندوبو

الدول الأخرى وكانوا على وشك الإجتماع فم أشأ أن أسبب إضطراباً فى موعد إجتماعهم ، فدخلت معهم الإجتماع وقدمت أنفسنا ، ولم ألبث عشر دقائق حتى جاءنى الرئيس ودعانى إلى تناول الشاى والإستراحة إذا أردت ، فإكتفيت باستبدال ملابس مناسبة بملابسى الرسمية وعدت إلى الإجتماع .

ثم خرجنا لتناول العشاء وأخبرنى الزملاء فى الطريق أن أهل هذه المنطقة نباتيون فلن تجد فى هذا المطعم إلا طعام النباتيين .

* * *

منذ هذه اللحظة بدأت معاناتى مع الطعام الهندى ، ليس فى إستطاعتى أن أصف هذا الطعام ، لأنى لم أتذوقه ، ولا حللته ، ولا فحصته ، ولا تمكنت من التأمل فيه .

إنما يكفينى أن أقرر أن واحدة من الزميلات الأوربيات ألحت عليَّ فى أن أتذوق أحد الأصناف ، وقالت أنها تأكله ، فكيف بى لاأستسيغه ؟ ، كانت تقصد إلى أن الهند أقرب إلى مصر منها إلى أوربا ، وفاتها أن الأمر فى الإستساغة ليس بقرب المسافة وإنما هو ذوق شخصى .

ليس من حقى أن أطيل على القارىء فى وصف ذوق قد يكون شاذاً ، ولكنى أكتفى بأن أذكر أنى فى أغلب الأحيان كنت أقتصر على تناول الخبز ، فإذا مللت من الخبز عصرت عليه الليمون ، وفى البعض الآخر كنت آكل السلاطة فحسب .

وكانوا الهنود سريعو البديهة فأدركوا معاناتى وكانوا يبذلون كل جهدهم للتخفيف منها ، ولكن دون جدوى .

* * * *

وفى الصباح بدأ رئيس المؤتمر ، فأعلن سعادته لحضورى وترحيبه بى ، ودعانى إلى إلقاء كلمتى ، فاعتذرت للأعضاء عن التأخير ، وأوجزت فى ذكر السبب ، وأبديت السعادة للقاء بهم بعد الرحلة الشاقة ، والأمل فى اللقاء بهم فى القاهرة فى الدورة الافريقية ، وأبلغتهم تحيات رئيس وأعضاء المكتب بالقاهرة ، وتحدثنا فى شىء من الإيجاز عن النشاط البيئى فى مصر ،

والمشكلات التى تواجه البيئة ، ودور الشباب فى حلها .

وإشتركت فى" مجموعة عمل " انبثقت عن المؤتمر لإعداد برنامج عملى للدراسات السكنية وتلوث البيئة وإجتمعنا فى المساء إجتماعاً ، محدوداً ، واختلفت الآراء فى كثير من النقاط ، وكنت أدلى بالرأى فى هذه المسائل فيلاقى الاستحسان ، وكنت سعيداً أشد السعادة بهذا ، وكان أعظم مالقى إستحسان الأعضاء هو رأيى المتواضع جداً عندما اختلف الطبيب الهندى الباحث فى الإشعاع مع زميلتنا البولندية حول وسيلة الإعلام والدعاية لمشكلة معينة ، وكان يرى أن الملصقات هى خير هذه الوسائل ، وكان قد أعد بالفعل مجموعة من هذه الملصقات ، عرض لها ماكيتات فيما بعد ذلك بيومين ، بينما كانت ترى أن الشرائح وسيلة أكثر فاعلية فى مثل هذه الموضوعات ، ولم أكن بحاجة إلى ذكاء خارق لاقترح عليهم وسيلة أنسب وأكثر فاعلية وأبسط مؤونة وأبعد أثراً ، وهى إعداد أفلام تسجيلية قصيرة تعرض قبل عروض السينما .

وعرضت الفكرة بشيء من التفصيل من ناحية الإعداد والتمويل ... إلخ ، وطلب رئيس الجلسة من الأعضاء التصفيق للفكرة والتوصية بها لمناسبتها للدول على إختلاف إمكاناتها ! .

* * * *

ودعيت لأكون مقرر الجلسة الثانية يوم السبت ، وكان من المقرر أن ألقى تعليقاً على بحث الزميل البلجيكى فى الجلسة الأولى وما أن إنتهيت منه حتى ذهبت أقضى حاجة لكى أكون مرتاح البال طيلة الجلسة التى سأجلس فيها على المنصة الرئيسية وعدت فوجدت رئيس المؤتمر وهو ينطق بالمقطع الأخير من اسمى ليدعونى لمشاركته المنصة .

والأعضاء الذين يعرفون أننى حامل هذا اللقب يبتسمون لدخولى فى نفس اللحظة . وكانت الجلسة مخصصة لأربعة بحوث ، وكنت حريصاً على ألا تأخذ أكثر من الوقت المحدد لها ، وألا تأخذ البحوث الأولى بالذات أكثر من الوقت المحدد لكل بحث بحيث لاتطغى على البحوث التالية وكنت أنبه الرئيس قبل أنتهاء التوقيت بدقيقة حتى ينبه المتحدث إلى إنتهاء الوقت المحدد له بواسطة

الجرس ، وكنت حريصاً على أن أبكر فى تنبيه الرئيس كسباً للوقت الذى يضيع دائماً نتيجة اصطناع كل رئيس للصبر من منطق الجمع بين الرئاسة والكياسة ! .

وحرصت على أن يكون تسجيل الجلسة على نحو منظم يريح السكرتارية الفنية ، وكم كانت سعادتي عندما سلمت محضر الجلسة إلى السكرتير العام فأخذ فى الغد يثنى عليه ثناءاًجميلاً ! غير أنى حرصت على إتخاذ جانب الحيطة فى نقل الآراء والملاحظات فكنت أترك الفرصة للزملاء لكى يقرأوا أسئلتهم وتعليقاتهم ، ولكن بعد أن يقدموها مكتوبة ماأمكنهم ذلك ! .

حتى أن سكرتير المؤتمر طلب إلى قبل النهاية بخمس دقائق أن أنبه الأعضاء إلى أن اليوم هو آخر فرصة يستطيع فيها أن يحجز لهم أماكن العودة بالأوتبيسات أو القطار ، فلم أشأ أن أعلن التنبيه بنفسى . لأنى أعرف بالطبع طبيعة هذه التنبيهات ، حتى إذا انتهى الرئيس من شكر آخر المتحدثين طلبت منه الميكرفون وأعلنت أن السكرتير العام يريد أن ينبه إلى شىء .

* * *

لم يكن أعظم فنادق هذه المدينة التى تضم عدداً من كليات جامعة معترف بها يتميز على أى بيت ريفى فى مصر بشىء كثير إنما يعنينى أن أشير إلى إعتنائهم بمدخله وهو مايسمى بالاستقبال ، فقد كان آية من آيات الفن الرفيع الهادىء .

وقد أختيرت لى الحجرة المجاورة مباشرة ، مشاركة مع المندوبين البنجالاديشى والموريشسى ، على حين كان هناك عنبر كبير فى الطابق الثانى يسع ١٥ سريراً ، وكنا نعدل من وضع الأسرة بحيث يتسع هذا العنبر لما نريد من اجتماعات العمل واجتماعات الصياغة ، والمناقشات المتعلقة بنقطة واحدة كما اتسع هذا العنبر للحفل العائلى الذى أقامه المشاركون تكريما للجنة المنظمة .

* * *

لابد لى من الإشارة إلى أن الحجرة لم تكن خالصة لثلاثتنا إنما كان يشاركنا فيها – عملا لا إقامة – التايبست ، ولم يكن عدد الكلمات التى يكتبها فى اليوم أو اليومين يتعدى مائة كلمة ، وإنما هى أرزاق من ناحية أن

الرجل يعمل في كلية العلوم ، فلا بأس من أن يشارك في مثل هذه الأجور الإضافية التي تأتي في مثل هذه المؤتمرات وهي قبل ذلك مسألة رفاهية من رفاهيات الفقر .

كانت حجرات الفندق العظيم على قدر عظيم من التواضع ، وكان الماء الساخن فيه على أوقات معينة ، ولم يكن من اليسير خلطه بالماء البارد قبل نزوله من الصنبور ، إنما كان عليك اذا أردت حماماً أن تخلط الماء فى إناء قد وضع خصيصاً لذلك فى الحمام .

كان الفندق يقدم لنا بمجرد استيقاظنا كوباً من الشاى ، وكان الرجل المختص بذلك يتحين الفرصة لتقديم الشاى ، وكان يدركنى قبل أن أرفع رأسى عن الوسادة !! .

وكانت إلى جوار الفندق ورشة لشق الخشب وتقطيعه ومسحه وما إلى ذلك ، وكانت تسبب ضوضاء شديدة ، ذهب بها عنا التعب الذى كنا نلاقيه فلا يدع لنا فرصة للإدراك (بل للتأمل) هل هناك ضوضاء أم لا ؟؟ .

* * *

وكانت هناك أشجار كثيرة مقطعة قد وضعت إلى جوار الفندق وأمامه كانت مجهزة للدخول إلى حيث تشق وتقطّع فى هذه الماكينات ، وقد ذهب أصحابنا ذات يوم إلى هذه الأشجار فجلسوا عليها متقابلين ! وأخذوا يغنون ويغنون ودعونى للغناء فوعدتهم أن ألبى الدعوة بعد العشاء وعدت بعد أن تجمعوا ، فما أن رأونى حتى قالوا إن دورى جاء ، فاعتذرت بأنى أحتاج بعض الوقت للتذكر ، ولم يمانعوا فقد كنت فى أيديهم ، والوقت معهم إلى آخر الليل .

وفتح الله علىَّ بنشيدنا القومى " بلادى بلادى بلادى " ، كوبليه واحد فقط هو الذى استطعت أن أتذكره على نحو يكون النغم فيه معقولا ، وأصلحت من شأن صوتى بخفضه ، وذهبت فى الغناء على نحو هادىء ممتد ، وأكثر ما كانت سعادتى اذ وجدتهم قد سروا على نحو ما للأغنية التى زعمت أنى أغنيها ،

وسألونى عن المعانى ، وكانت فرصتى ، ترجمة الكلمات ، وشرحت المعانى وسردت قصة الشعر ، وحدثتهم عن سيد درويش ، وعن التغيرات التى لحقت بالأغنية وبلحنها ، وهم فى كل ذلك منصتون لم يسأموا .. واستمعت بعدها إلى أغنية هندية ثم سألتهم الذهاب للراحة فأذنوا لى .

* * * *

كان هذا الزميل السيلانى صغير الحجم ، صغير السن ، ومع هذا كانت له أهميته عند التصويت فهو يمثل دولة ، ولم يكن له دور كبير فى النقاش ولا القرارات ، وإنما كان يتعلم ، وكنت أقدر هذا فيه ، لأنى كنت أظن أنى كنت أؤدى دوره فى مراحل سابقة ، وبوسعى أن أقدر هذا الصمت الذى يلاحظ ، وهذه العين التى ترى الحركات ، والأذن التى تسمع السكنات ، هذا العقل الواعى الذى يقدر له أن يسمع فى مراحل متقدمة وأن يدرك لابد له من التصرف الواعى فى يوم من الأيام .

كنا ذات صباح نركب تاكسى إلى الطلبة ، وقد ركبه خمسة بالإضافة إلى السائق ، وكان السيلانى واقفاً على بعد ، فدعوناه ليكون الرابع فى الكرسى الخلفى ، وقلنا للسائق أنه مندوب صغير ، وأضاف أحد الركاب لدولة صغيرة ،ولم يكن بد من المجاملة فقلت سيكون كبيراً وتكون كبيرة .

* * *

أما زميلنا الذى جاء من موريشيوس فقد أثار إعجابى به ، حبه لوطنه ، الذى برز حين كنا فى حوار سألنى فيه أحدهم عن مناخ مصر ، فأجبت فى نعرة وطنية تتخفى تحت أسلوب علمى دقيق ، بأن مناخ مصر خير مناخات العالم ، عندئذ أسرع الموريشوسى ليقول أنا أخالفك فإن مناخ موريشوس هو ذاك المناخ الأحسن فى العالم .

وفى شيء من براعة الجدال العلمى استطعت أن أقنع المستمعين — بما فيهم بل وأولهم هذا الأخ الموريشوسى — بأن مناخ مصر خير وأولى .

وإنما أحكى هذا لأبين أن عند كل واحد من خلق الله ما يستطيع أن يفخر به ويزدهى على غيره ، على حين يستطيع فى سهولة أن يشكو من كثير وكثير

يعانيه فى نفسه ووطنه .

وكان الموريشوسى مشوقاً للحضور إلى القاهرة ، وقد سألنى فى لطف بالغ هل أقبل أن أحمل رسالة منه تيسر له إجراءات حضوره فيما بعد ، فأجبته بأن هذا شرف لى .

كان الأخ الموريشسى متمكناً من الانجليزية إلى درجة تستحق الإحترام ، وكان ثالث ثلاثة فى حجرتنا التى ضمت كذلك النبجلاديشى ، وقد خرجنا لجولة ذات ليلة فى كاراد ، فأحس بتعب فى معدته ، وبمعاناة للحموضة ، وأخذنا نمزح فى أمر تعبه وحموضته ، وهو يطلب إلى أن أكشف عليه ! ، وأن أضع يدى على بطنه ممثلا حركات الدكاترة ولم يكن الأمر يحتاج إلى هذا ، وكان يعرف ذلك بالقدر الذى أعرفه ، ولكنه مزاح .

وقد جاء فى ذات صباح وعلى صدره شارة طريفة كتب عليها أنقذ جلدى ..تنقذ حياتى ، وكان على الجزء العلوى من ذراعه آثار مرض جلدى قد ذهب بالطبع ، فسألته فى تلطف عن هذه الشارة دون أن أبدى فهما لارتباطها بما رأيت فى ذراعه ، وكان من حسن الحظ أن أجابنى بأن زميلتنا الدانمركية هى التى منحته هذه الشارة التى صدرت عن جماعة تنتمى إليها ! .

* * *

لم تكن بحوث المؤتمر ، إنشائية بالطبع ، ولم تكن أكاديمية من ذلك النوع رفيع المستوى الذى قد يضيف جديداً إلى العلم ذاته ، ولكنها كانت تجمع بنسب متقاربة بين الطبيعتين . وكثيراً ماغلب عليها الإنشاء ، ولكنه الإنشاء المرتب الذى يعبر عن التأثيرات المتبادلة بين العوامل البيئية والعلمية المختلفة .

إنما يهمنى أن أعبر عن ذلك الاهتمام الشديد من جانب الباحثين ببحوثهم ، ويكفينى أن أذكر أنه ما من باحث منهم انتهى من قراءة بحثه قبل الوقت المحدد له ، وقد لاتكون هذه ميزة ، وقد لاتعبر عن الإهتمام ، لأن الاهتمام الطبيعى بالبحث يأتى من ضبط وقت ملخصه بحيث لايزيد عن الوقت المفروض فيضطر الباحث عندئذ للتخلى عن الفقرة أو الفقرتين أو الثلاث الأخيرة منه ، ولكنه على كل حال إهتمام غير ناضج ، سينضج حتماً مع التجربة ولا

تنسى أن هذا المؤتمر قد يكون المؤتمر الأول لكثير من هؤلاء .

ذكرنى هذا بما حدث معى من قبل فى ندوة فى القاهرة ، وكنت بحكم ترتيبى أول الذين يتحدثون ، وأعددت كلمتى على أن يتبقى لى من الوقت المقرر دقيقة أو أكثر ، على حين ظن كل من جاء بعدى أنه من الخير لهم أن يطيلوا أضعاف الوقت ، حتى أن بعضهم قد جعلها تستغرق أكثر من نصف الساعة ، وكان رئيس الجلسة ومساعدوه لا يفتأون ينبهونهم إلى أن يختصروا ، ويضربوا لهم المثل بى ، فى كل مرة ، حتى صرت إلى حالة من الملل ، خوفاً من الكره الذى سيصبه علىّ زملائى لهذا الخلق الذى لم يكن عندهم إستعداد له !! .

هذا فى القاهرة أما فى كاراد فقد أدرك الزملاء يوماً بعد يوم أن عليهم أن يعيدوا حساباتهم وقد رأيت أحدهم وهو يختصر من كل صفحة فقرة أو فقرتين يضع عليها حرف × حتى يستوعبها حرف × ، ولا يستوعبها حديثه .

* * *

وكان البعض يستعين بالسبورة ، ولعل أبرز هؤلاء أخونا البنجلاديشى ،والسبب فى ذلك واضح ، فقد كان مدرساً فى المدرسة الثانوية .

وكان البعض يستعين بالشرائح ، وكانت هذه تأخذ وقتا طويلا ، فلم يكن جهاز العرض من ذلك النوع الذى يسمح بتعبئة الشرائح مرة واحدة وإنما كان الأمر يحتاج إلى وضع الشرائح واحدة بعد أخرى ولم تكن الشرائح محددة الوجه والظهر ، ولا الأعلى والأسفل على النحو الذى يسمح للأخ الذى يدير جهاز العرض بأن يضعها فى وضعها الصحيح ، وإنما كان يضع الشريحة فتأتى حيناً قليلاً فى وضعها الصحيح وأحياناً مقلوبة أعلاها أسفلها ، أو يمينها يسارها أو وجهها ظهرها ثم يعيد فقد يصل إلى الصواب من المرة الأولى وقد يصل إليه من الثانية أو الثالثة وفى مثل هذه الأجهزة فإنك تحتاج لكى تعيد حساباتك أن تعيد جزء الجهاز الذى توضع فيه الشريحة إلى وضعه الذى كان عليه من قبل وعندئذ تظهر للحاضرين الشريحة السابقة ، وهكذا ...

هذا عن الجهاز أما مكبر الصوت فكانت به تكنولوجيا هندية متقدمة بعض الشىء ، كان له مشبك يعلق به فى جيب قميص المتحدث فيتيح للمتحدث أن

يستعمل يديه فى الشرح أو الكتابة على السبورة أو الإشارة إلى الشاشة التى تعرض الشرائح .

وكانت السبورة هى الأخرى تعبيراً عن تكنولوجيا بسيطة فقد قسمت إلى نصفين نصف كسبوراتنا التى تعرف ، والنصف الآخر قد قسم بخطوط حمراء إلى مربعات على النحو الذى نعرفه فى كراسات المربعات .

وكانت منصة الخطابة ثابتة الحجم بالطبع ، وكان الذين يتمتعون بالطول المناسب أو القصر المناسب يتكيفون معها ببعض الجهد ، أما مندوب بلجيكا وكان طويلاً إلى الحد الذى يلمس فيه برأسه سقف قاعة المطعم الذى كنا نتناول فيه عشاءنا ، فقد عانى من هذه المشكلة ، فقام إليه الرئيس وناوله ميكروفون الرئاسة ليلقى منه كلمته .

* * *

كنا نتناول الإفطار والغداء فى مطعم كلية العلوم ، وخير مايوصف به هو أنه متواضع جداً . أما العشاء فكنا نتناوله فى مطعم بسيط ، ولكنه فيما يبدو أهم وأرقى مطعم فى المدينة الصغيرة ، وكنا فى كل يوم ضيوفاً على هيئة من هيئات المدينة (الرسمية أو الشعبية) مع أننا فى نفس المطعم ، وكان الرئيس يوحى إلى أحدنا كل ليلة أن يقوم ليقول أننا ضيوف على ... ونحن نحييهم فنصفق لرئيسهم أو مندوبهم الذى يحضر معنا العشاء .

وذات ليلة أوشكنا على النهاية ولم يقم أحد ليصرح باسم مضيفنا . وسأل أحد الزملاء أليس هناك تصفيق الليلة ؟ ، ورد آخر مازحاً ، إن الأمر ليس بهذه الأهمية ، فداعبه ثالث بقوله إن عليه أن يختار بين التصفيق والدفع ! ، وعندئذ أدرك صاحبنا أهمية التصفيق ثم مضى بعض الوقت وقام الأخ البلجيكى فطلب الانتباه ثم قال إننا ضيوف اليوم على الروتارى ، وبدلاً من أن يقول فلنحييهم صفق بيديه ، وعندئذ صفقنا وسط ضجيجنا بالضحك من ظرف الزميل البلجيكى ، ظُرْفٌ صريح لم يكن من الصعب على مندوب الروتارى أن يفهمه على وجهه الصحيح .

* * *

أحدثك عن مندوب من بنجالاديش ، وقد أتاح له الحظ أن يعمل بالتدريس في المرحلة الثانوية بعد تخرجه منذ عام . وكان من ذلك النوع الذى يميل إلى مايسميه البعض بالتفلسف ، وماهو إلا نوع من تأصيل الأمور حين لاتحتاج الأمور إلى تأصيل ، ذلك أن العامة فى جميع المستويات لايستسيغون أن يجعلوا لكل شيء سبباً واحداً ، ولكن هناك أناساً فى كل مستوى يحبون أن يبحثوا عن السبب ، وعن الفروق بين المتناظرات ، وعن الإختلافات بين الأحداث ، وعن أثر الزمن فى الشيء الواحد ، وأثر الشيء الواحد فى الأشخاص المختلفة ، وعن تقدير كل أمر بالنسبة إلى شبيهه ، وكان صاحبنا البنجالاديشى من هؤلاء ، فإذا قيل له إنه أستاذ (بروفسيور) من باب التقدير للتسكيت وقفل باب الموضوع قال إنه ليس أستاذ ولكنه مدرس فقط ، وهو بهذا لايتواضع ، ولكنه يواصل ماعهد منه من التدقيق كصورة من مقدمات التفلسف .

والحق أن صاحبنا البنجلاديشى كان ينصت فى اهتمام ، ولهذا كان يفهم بالقدر الذى يؤهله للمناقشة التى تضيف أبعاداً ، لا التى تستوضح أبعاداً .

وكانت له حركات تمثيلية رائعة لو كانت لسياسى ، ولكنها معيبه عليه وهو رجل علم يلقى بحثاً فى التلوث لا خطبة سياسية فى الحث على اتخاذ موقف معين .

كان يثير الضحك طيلة إلقائه لكلمته ، ومن قبل طيلة رئاسته للجلسة التى سعدت برئاسته .

وحين ألقى كلمته امتد ببحثه أكثر من الوقت المقرر فنبهته الرئيسة لذلك بضرب الجرس ، واستمر ، حتى نبهته ثانية وثالثة .

وأدركت أن أمر المناقشة إذا فتح معه فلن ينتهى ، فعمدت إلى الأسلوب المعهود فى مثل هذه الحالات حيث ألقت عليه الاسئلة مكتوبة مرة واحدة وطلبت تعليقه عليها دفعة واحدة .

* * *

وكان هناك اثنان من المشاركين فى المؤتمر هما أكبر الجميع سناً ، وكانا ينفِسان على الفتى ، وقد لايكون لهذا سبباً إلا سبب السن ، كانا لايفتآن

يضحكان عليه بصوت مسموع اذ رأس وإذ تحدث ، وكانا لا يستحيان من أن يبديا عجبهما من أفكاره وحركاته على نحو ملحوظ .

* * *

وقد كان من حظى الحسن بلا شك أن يكون هذا البنجلاديشى زميلاً لى فى الغرفة .

وكان إسمه '' أنور '' وقد أتاح له هذا الأسم أن يظفر بنظرات التقدير من الأعضاء عندما يسألوننى الرأى عن الرئيس السادات ، فأختم حديثى عن براعته السياسية بأن زميلنا البنجالاديشى يحمل إسم رئيسنا ، ولم يكن بد لزميلنا البنجالاديشى فى كل مرة من هذه المرات من أن تغلبه طبيعته فيقول إنه أنور ولكنه ليس أنور السادات ، ولم يكن فى هذا جديداً على الناس ، ولكنه الطبع يغلب العقل والتعقل قبل أن يغلب التطبع ! .

* * *

أما زميلتنا البولندية ، فكان فيها ذلك الجمال الهادىء الذى مرده إلى الملامح ولون البشرة ورقة التقاطيع ، وقد تخرجت حديثاً من كلية الهندسة والتحقت بهيئة البحث فى الجامعة ، وقد حظيّت بالإهتمام الشديد لأحد الهنود ، وكان شاباً هندياً قد تخرج لتوه – هو الآخر – من كلية الطب وبدأ طريقه فى عالم الطب النفسى فى مستشفى بالقرب من نيودلهى ، وكان دائم الجلوس إليهاوالاحتفاء بها والاهتمام بطلباتها ، غير أنه فى الواقع ، لم يكن يضيق بحديث أحد إليها ولا بحديثها إلى الآخرين .

وإذ كنا نتبادل العناوين كتابة فى مفكراتنا ، كانا يجلسان كالعادة إلى جوار بعضهما ، فكتبت لى عنوانها وعنوانه . وأخذت هى تقلب فى صفحات مفكراتى حتى عثرت على الصفحة التى كتب فيها طبيب هندى آخر عنوانه ، ولفت نظرى أن هذا وصديقها أخوان ، وكانا بالفعللهما نفس اللقب ، وكانا يعملان فى نفس التخصص ، وفى مستشفيين قريبين ، وكان من الطبيعى أن أفكر أيهما الأصغر ، وأيهما الأكبر ، لأن ملامحهما لم تكن متشابهة بالقدر الذى يجعلهما توأمين ولا حتى شقيقين ، على الرغم من أن مرتبتهما فى سلم العمل

الطبى (كنواب جدد) لا تتأتى إلا لأبناء الدفعة الواحدة ، عندئذ ضحكت البولندية ، وأخبرونى أنهما ليسا شقيقين ، إنما هو تشابه فى الألقاب ، وتماثل فى التخصص ، وزمالة فى الدفعة .

كان من أظرف من قابلت ، وكان ثانيهما سعيداً بالتى شرت التى تحمل إسم المؤتمر على ظهرها ، وعلى وجهها صوّرت الأرض فى صورة حزينة وهى تقول كتابة '' أنظر ! ماذا فعلوا بىَ ؟ '' .

كانت أطول الكلمات للفتاة التايلاندية الصغرى ، فقد كانتا فتاتان ، وأنت تعرف أنه من الصعب التمييز بين أهل بلاد الهند الصينية لتشابه الملامح إلى حد كبير ، فإذا أضفت إلى هذا التماثل الملابس التى يلبسانها ، أدركت ماذا أفادتنا الأحجام فى التمييز السريع والمباشر بين الفتاتين اللتين قدمتا من بانجكوك .

وكان هناك أيضاً اختلاف فى كلمتيهما ، ولكن هذا الإختلاف لم يذهب عن الكلمة الصغرى بالترتيب الثانى فى طول كلمات كل المؤتمرين ، ولعل هذا الطول جاء معبراً عن ضخامة المشكلة التى يعانونها فى مسألة البيئة فى تايلاند ، بل لقد جاءت مقدمة كلمتهما طويلة بالقدر الذى يعبر عن المشكلة فى الدولة النامية ، البادئة حديثاً فى الإهتمام بمجالات البيئة .

أما طبيبا النفس فقد ذهبا فى أمر محاضرتهما مذهب التعقيد ، وكتباها فى ساعات طويلة ، وتأخرا عن حضور إحدى الجلسات لكتابتها .

وكتب فقرات منها لاتحتاج إلى الكتابة على البروجكتور لعرضه ، ورسموا مثلثاً للعوامل الثلاثة البيئة – العامل – المعاكس ، وحين أخذا يلقيانها قسماها فقرة لهذا وفقرة لذلك ، وقد وقف أولهما على المنصة ، والآخر على جهاز العرض ، وإستدعى ذلك أن يقف أحد الأعضاء ليطفىء الجهاز وينيره فقرة بعد فقرة أخرى وليس على البروجكتور كلام مكتوب .

إنما هى طبيعة بعض الأطباء النفسيين المبتدئين يظنون أنهم يسطون بالتحليل ، وهو يعقدون بالتحليل من دون أن يدروا ، ولكن الناس يفهمون وحتى المرضى ! .

* * *

وقابلت عميد كلية العلوم فى إستراحة من إستراحات الشاى فرحب بى ، ووجدته على علم بما تم بالمؤتمر ، ومن أى البلاد بالضبط أتى أعضاؤه ، وتطرقنا إلى موضوعات المجاملة المعهودة فى مثل هذه الحالات ، أول مرة هنا ؟.. هل أنت سعيد .. كيف كانت الرحلة .. الجو هنا وفى مصر .... إلخ .

وفى اليوم التالى فيما بعد إستراحة القهوة ، ومعرض الملصقات ، دعيّنا إلى فناء المدرسة لأخذ الصور الفوتوغرافية ، وجاء أستاذ الطبيعة فأخذ يكتب الأسماء (بالحروف الأولى) على الكرسى حتى تأتى الصورة على النحو الرسمى ووقفنا خلف العميد واللجنة المنظمة ، وانطلق الزميل الذى أنيطت إليه مهمة التصوير ليأخذ اللقطات بأكثر من كاميرا وعلى الرغم من أنها لم تكن كلها له ، وإنما كانت له ولزميلين من الزملاء الهنود إلا أنها على كل حال فكرة حسنة جديرة بالأخذ بها فى مثل هذه الأحوال التذكارية ، وإنى أذكر أن مناسبة هامة أقيمت ذات مرة ، واقتصرت اللقطات التذكارية على كاميرا واحدة ، فلم تظهر منها صورة .

أما مكتب العميد فليس فيه مايزيد على مكتب ناظر مدرسة إبتدائية فى الريف المصرى ، على أن فيه شيئاً راقياً وهو أنه متصل بباب جانبى بالحجرة التابعة لشئون الطلاب والتى تحتوى الملفات والسجلات ، وهو تقليد جميل يغنى عن السعاة ، ولكنه مع ذلك متبع فى بلد أكثر أهلها سعاة .

وكنا نستعمل دورة المياة التى كتب عليها أنها مخصصة لأعضاء هيئة التدريس فقط ، وهى تخلو من الصابون ، وكذلك المطعم ، وكنا إذا فرغنا من تناول الوجبة وغسلنا أيدينا بالماء فعمدنا إلى منشفة نتناوبها نحن الأربعون فنمسح بها أيدينا ولم نستشعر فى ذلك حرجاً عند أى من الهنود على الإطلاق .

* * *

وزرت معامل كلية العلوم ، وقضيت الشطر الأكبر من هذه الزيارة فى معمل الميكروبولوجيا ، وقد أظهر أستاذ البولوجيا سعادة كبرى بزيارتى وملاحظاتى ، والحق أن سعادتى به قد تكون أضعاف سعادته .

وكنت أتفحص الأجهزة وكلها هندية الصنع ، وأسأل عن ثمنها ، فلما

وجدوا أنهم لايتذكرون هذه الأثمان على الوجه الدقيق رجعوا إلى أوامر التوريد وأرونى الفواتير كلها .

ولاحظت أنهم يحرصون على ذكر إسم العالم الذى إخترع الجهاز أو طورّه على نحو تفخر به الأمانة العلمية .

وكنت أبحث عن جهاز من هذه الأجهزة جميعاً لم يصنع فى الهند فلم أجد إستثناء على الإطلاق .

* * *

وكثير من طلاب كلية العلوم يتجمعون حولنا لنكتب لهم فى '' أتوجرافتهم '' وكنت فى البداية أظن أن الأمر ليس إلا تبادل عناوين كما نفعل نحن مع مندوبى الدول فى المؤتمر ، ولكنى عندما تكاثر علىَّ العدد علمت أنهم طلبة الكلية ، عندئذ انتبهت إلى أن أكتب لهم عبارة من العبارات التى توضع فى الأوتوجرافات ، ولكنى لضيق الوقت كنت أقتصر على عبارة لاتزيد على السطر ، وكنت أستحى من هذا الامتنان الذى أجده عندما يتلقون من يدى '' الأوتوجراف '' فكنت لهذا أعطيهم مفكرتى ليكتبوا عناوينهم من باب إزالة الكلفة التى يتصورونها .

وكان علينا تبعاً للبرنامج أن نذهب إلى مدينة تبعد ١٥٠ كيلومتراً عن كاراد ، ليس لك أن تسألنى الآن عن الغرض من زيارتها ، ولكن لك أن تتصور رفاهية الهند القيرة عندما يقرر السيد الرئيس أن تبقى الغرف محجوزة لنا مع أننا سوف نقضى يومين وليلة فى بلد أخرى وفى استطاعته أن يوفر على المؤتمر نفقات هذه الليلة ، وبخاصة أنه يعرف أن الفندق ليس على هذه الدرجة العالية من الإشغال بحيث يحتاج الأمر هذا الإحتياط العظيم .

وقالوا لنا فى المساء أن موعدنا السادسة صباحاً وأيقظ الجميع بعضهم منذ الخامسة ، وعلى نحو العادة فى مواعيد البلاد النامية جاءنا الأتوبيس العظيم فى التاسعة .

وانظر إلى رفاهية الفقر عندما جاء معنا فى الأتوبيس حوالى خمسة من

العمال مخصوصين لا لشيء إلا ليوزعوا المياة الغازية التى سينال الفرد منها زجاجة أو اثنتين ، وآخر حمل الآلة الكاتبة حتى لايوقع الرئيس خطاباً كتب بخط اليد ! ، أو على ماكينة غير تلك التى تحمل معانى الخلود ! ، مروحتان كهربائيتان من ذوات القوائم حملهما معه الأتوبيس ، وكنت أظن أن فى الأمر تكنولوجيا سوف تسمح بتشغيل المراوح بطاقة تستخرج من الأتوبيس ، على نحو مايشغل الراديو والتكييف ، وقلت إن المراوح هى الصورة (النامية) من التكييف . ولشدة ماكانت دهشتى عندما فهمت أن ستنقل هذه المراوح فى الأتوبيس لتروح معنا حيث نذهب .

* * *

لم يدع الأتوبيس كاراد حتى توقف مرة تلو مرة فى أزقتها وشوارعها يحمل إناساً لم نعرفهم فى المؤتمر ولم أكدّ ذهنى لأفهم أن هذه المرأة هى حرم السيد الرئيس ، وقد تزوجها عن قرب .

ولم يكن من الصعب على أن أفهم أن هاتين الفتاتين ليستا إلا زوجتا إثنين من أبرز الأعضاء الهنود فى المؤتمر ،تزوجوامن مدة قصيرة ، لم تتح لهما ظروف الحياة أن يقضيا شهر العسل فأجلاه وجعلاه يوما عسل .

* * *

هانحن نتوقف المرة تلو المرة بالسيارة ، وينزل الركاب ثم يعودون ، لايعرفون لماذا نزلوا ، ولكنهم ملوا الجلسة على هذه المقاعد الجافة ، وبين هذه الارتجاجات . قضيت الساعة الأولى فى تقلب على الكرسى الذى اتخذت لنفسى منه سرير ، ثم اخذت بعد ذلك اتطلع إلى جمال الرحلة الذى لم يبدأ إلا بعد أن عبرنا مدينة كوالبور ، هذا طريق فى سلسلة الجبال المتتالية يمضى الطريق على حافة الجبل فيحيط به ثم ينتهى إلى الجبل الثانى فيدور على حافته وإلى الثالث فالرابع ثم الخامس فالسادس والسابع والثامن فالتاسع ثم العاشر فالحادى عشر فالثانى عشر ثم الثالث عشر وهكذا سلسة متوالية من اللفات فى طريق ضيق يكاد يتسع بالكاد لسيارتين ، على أننا لم نقابل طيلة الرحلة الممتعة

أكثر من ١٠ سيارات فى الطريق كله .

* * *

وجاء موعد الغذاء فوجدتهم يفتحون هذه الصفائح ويخرجون منها أصناف الطعام . بالله . إنى لأأريد أن أتذكر هذه الأصناف ولا تلك اللحظة الآن ، إنما يعنينى أنهم جلسوا إلى الشجرة وأخذوا يمدون أيديهم إلى الصفائح واحدة بعد أخرى ويضعون فى أطباق وينادون على الزملاء . ولم أتناول غير الخبز ، إن صح أن يسمى هذا بالخبز ، والتقينا بعد الطعام وكانت فرصة لتبادل المشورات الجانبية مع الأعضاء الجانب حول مؤتمر القاهرة القادم ، ودعوتهم ، والتمويل ، وما إلى ذلك من الأمور .

ثم وجدتهم يدعون بعضهم إلى النزول إلى البحيرة وكان بينها وبيننا قرابة ١٥ – ٢٠ متراً فوعدتهم أن ألحق بهم ، وقضيت بض الوقت مع أحد الهنود ومع ممثلة تايلاند وكانت قد استلقت تماماً على فروع شجرة من الأشجار ، على نحو رأيته لأول مرة ، وإن كنت قرأت وصفه فى كثير من القصص ، خصوصاً تلك التى تجرى حوادثها فى مثل هذا المناخ .

* * *

وذهبنا إلى البحيرة ، ولم يكن من السهل علينا أنْ ندرك مكان الزملاء من علٍ نظراً لهذه الألتفافات بين كل درجة وأخرى من الخمسة عشر متراً ، ونظراً لكثرة الأشجار النامية على أطراف هذه الدرجات ، على أنهم سرعان ماأحسوا بمقدمنا إذ سمعوا صوتى ، وسمعت مناديا يقول '' آلى جوادى هاللوا '' وكان الطبيب الهندى .

وأدركنا الحظ ببعض اللقطات الفوتوغرافية على هذه المدارج ، جمال الطبيعة الأخاذ لايدع مجالاً أمام حواس البشر إلا أن تعترف بقدرة الخالق عزَّ وجلَّ .

ووجدت أكثر من واحد من الهنود قد خلعوا ملابسهم ونزلوا إلى

البحيرة ، ثم خرجوا وهو يشكرون الأقدار التى أتاحت لهم فى هذا اليوم هذا الماء الجميل ! .

* * *

وإذ حان موعد الإجتماع خرجنا من البحيرة وإلتففنا وكان الموضوع يتعلق بالتلوثات الصناعية ، وكان من المفروض أن ألقى تقريراً مقتضباً عن هذه الناحية فى مصر ، وغلبت فى تعليقاتى على حقائقه عنصر التفاؤول ، وأشرت إلى أهمية اقتناع الوزراء بمثل هذه البرامج ، فخوراً بعقليات وشخصيات وزراءنا المصريين ، ثم كانت اللحظات الحرجة ، وصعدنا إلى الجبال بعد تعب السفر والملفات القاسية ، وبعد وجبة متعبة ، وبعد إجتماع طويل ، وبعد ملل ، بعد كل هذا ، وكان علينا أن نمضى فى الصعود لأكثر من خمسة كيلومترات ، كانت القمة حوالى مائتى قدم ، ولكن الوصول إلى القمة على الأقدام يستدعى أضعاف هذه المسافة الطويلة نظراً لكثرة المنحنيات على طول الطريق الصاعد .

هانحن نزور إحدى المحميات الطبيعية حيث يكفّر الإنسان الحديث عن خطايا الإنسان المعاصر الذى لم يترك فرصة لتدمير البيئة من أجل التنمية البشرية فى عصر الصناعة إلا وفعل ، ثم اذا هو اليوم ينتبه ببعض كيانه إلى أهمية (الأصل) فتبدأ الجهود لإقامة هذه المناطق التى تعزل بفضل الفهم الصحيح عن الحياة الحضارية الصاخبة من حولها لتبقى للأجيال القادمة رمزاً كبيراً بل حقيقة من الماضى بكل مافيه من مناقب لاينبغى الذهاب بها .

* * *

كنت أعانى من المتاعب ومع ذلك كنا جميعاً نمرح ، كنا قد قسمنا إلى ثلاث مجاميع حتى لانضل الطريق فى شعاب الجبل ، وذهبنا معاً ، وأحضروا لى عصا أتكأ عليها اذا إستقمت فى وقفتى ، وأتحسس بها طريقى اذا أقدمت على منطقة مظلمة ، وأستند عليها معتمداً على مقاومتها للأرض فى تدعيم صعودى .

هذه الوظائف الثلاثة للعصا تذهب بكيانها لحظة بعد أخرى ، فتشكو فيأتون بأخرى وكنت أظن أن العصى الغلاظ أصلح ، ففوجئت أن العصا الرفيعة

أقوى وأقدر .

* * *

نبهوا علينا أن التدخين ممنوع وأن الكلام ممنوع ، لم يكن ثمة موضوع للحديث ، فحادثتهم عن متاعبى ، وأخذت أعدد ، ثم غلبنى طبعى فقلت أنها سبعة متاعب فى الرأس ، والأكتاف ، والعمود الفقرى ، والمعدة والقدم ، وقناة إستاكيوس ، والجبيب وأخذوا يمزحون ، وقال أحدهم هل لو إنتهت متاعب الحبيب تنتهى المتاعب السابقة ، فقلت لا .

وإشتدَّ على التعب اللحظة بعد الأخرى وهم يبحثون عن الحيوان المنقرض الذى هو أبرز مافى هذه المحمية فلا يجدونه ، ويخفضون الأضواء فلا يجدونه ، ويضيئونها فلا يجدونه ، ويدورون هنا وهناك فلا يجدونه . حتى انتهينا إلى ربوة منبسطة فى قمة الجبل فجلسنا إليها وكان أعضاء مجموعتى قد خدعوا المجموعة الأخرى وقالوا لهم أننا رأيناأربعة من هذا الحيوان المنقرض . وسُئلت فى السر فقلت أننا لم نر شيئاً . نفس الشيء الذى فعله الآخرون . لم يكشف سر الكذب إلا صدق واحد فقط ، لعله لم يكشف السر حبا فى الصدق فحسب ، ولكنه لأنه رأى أن الأمر ليس بذلك القدر من الإنجاز .

* * *

لم تعد لى قدرة على التحمل ، حتى هذا الحذاء الذى إشتريته فى أول هذا الأسبوع من محل مترو فى بومباى ، ضج بالرحلة ، وبأمرها وتمزق كعبه حتى لم يبق منه إلا قالبه (الخشب) .

ثم جاء الفرج حين جاء مدير الغابة ، واثنان من أصحاب الشأن ، كانوا يركبون سيارة جيب ، وأبديت رغبتى العاجلة فى العودة سريعاً بهذه العربة ! فتداولوا فى الأمر ولم يكن بد من أن يستجيبوا لى أخذونى وأخذوا بعض الزميلات اللاتى أتعبتهن الرحلة .

هذه هى العربة بموتورها وعلى سرعة متقدمة تأخذ المسافة فى حوالى نصف ساعة ، بالله ، كم صعدنا .

* * *

فى الأتوبيس وعلى مقعد من مقاعده الخلفية استرحت بعض الشيء ، كان علينا أن ننتظر دقائق ودقائق وأنصاف ساعات حتى حضر الجميع ، من تاه منهم فى الصعود ومن تاه فى الهبوط ، ومن ضلَّ الطريق ! منذ ماقبل الخامسة وحتى مابعد الثانية عشرة ونحن على هذا الحال .

لاأدرى متى نمت ؟ ، ولا أين نمت ؟ ، ولا كيف مضى الوقت ؟ .

سارت السيارة الكبير بنا حتى أتينا إلى مايشبه القرية . سمعنا ضجيجاً ، وأصوات تشبه أصوات السينما ، كان غريبا أن تستمر السينما فى عملها فى قرية ما إلى هذه الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ولكن ماالعمل ، والهنود قوم عاطفيون إنتعشت فى بلادهم صناعة السينما وتجارة السينما وفن السينما ولا بأس أن تستمر السينما فى هذه القرى التى لم يصلها الفيديو بالطبع إلى الثانية صباحاً، وإلى الرابعة وإلى السابعة صباحاً .

وحين علمت أنهم ينوون الذهاب إلى المطعم لتناول العشاء ثم يعودون إلى النزل ، طلبت إلى أولى الأمرأن ينزلونى فى المنزل أولا إذا كان فى الطريق إلى المطعم ، وقد كان ، ونزلت فإذا هو بيت فردى ، كلمة بيت هنا تعنى تنازلاً كبيراً . إنما قصدبها أنه له أربع جدران حتى هذه فإنى بدأت أشك فيها ! .

بالله ليس فيه بلاطة واحدة ، ولا دهان حائط ، ولا دهان سقف ولا دهان باب . إنما هى الأرض التى خلقها الله حرة تستمتع بالشمس تجدد رائحتها قد أحاطوها بهذه الجدران التعسة والسقف .

أين السرير ؟ لاسرير ، أين الفراش ؟ لافراش ، أين الغطاء ؟ لاغطاء ، أين الوسادة ؟ لاوسادة ، هكذا كان حوارى مع الحارس .

أحس الحارس بضخامة التبعة الملقاة على عاتقه فى مواجهتى فأخذ يحاول أن يفتح الأبواب يرينى أن هناك حجرات لعل ذلك يغفر لهم .

وكنت أترقب فتح كل باب بفارغ الصبر ، أظن أن وراء هذا الباب فى هذه الحجرة سريراً أو فراشاً أو غطاء أو أى شيء يبعث على الأمل ، فلا أجد إلا هواء غير نقى .

* * *

وليس لى بد من أن أريح بطنى مما تحوى ، وقد ذهبت عن نفسى الآن الفترة الأولى من الدهشة التى اعترتنى فأسكتت صوت بطنى ، وسألت عن دورة المياه فأجابوا أيضا نفس الإجابة ، هزة الرأس التى تصاحبها لا (نيه) هكذا تنطق أداة النفى عند هؤلاء القوم .

فى حركة تمثيلية قوية قطبت حاجبى على النحو الذى يتكون منها جناحا العدد ٨ ونظرت مى إشمئزاز وقد انعكس كل غضبى على ملامح وجهى وتقاطيعه .

عندئذ أخذ بى الحارس إلى الدور الأرضى حتى خرجنا من المنزل وأصبحنا فى الخلاء ثم ذهب بى إلى شىء له باب هو شبه حجرة . وليس فيه ضوء . وقال لى إن هذه هى دورة المياه . ياللعجب ! أين الماء ؟ لايوجد ، أين النور ؟ لايوجد ، أين المرحاض ؟ لايوجد ، لابأس أعددت بعض الورق المهمل من حقيبتى ونزلت إلى هذه الدورة ، فالأمر لايحتاج إلى تفكير ، لابد من الخلاص على أية صورة .

على إن نبل الأخلاق ، أو أثر الذل أو أثر الخوف ، قد جعلنى بعد خمس دقائق أتلقى الخادم وقد جاء ينادى السيد ، وقد أحضر له الماء .

ثم ذهبت إلى عملى حيث لم أمكث إلا دقيقة واخذت أتلقى الزملاء وقد عادوا الواحد بعد الآخر من العشاء .

وأنا أصرخ فيهم مع تحم الأعصاب : هل هذا يليق الإنسانية ، لا بالمؤتمر الدولى ؟ ، هل ... ... ؟

والهنود شاركوننى الرأى ، ولكنهم لا يجدون مانعاً فى قضا[illegible] أى نحو ، يشاركوننى المشاعر ، ولكنهم لا [illegible] سوف يقفون ورائى إذا طلبت منهم ذلك .

* * *

ليس من عادتى أن أطلب إلى الناس أن تقف ورائى ، حتى لو كان الأمر يخصهم ، إنما أفهم القيادة على أنها تفويض لا تعليق ولست من أنصار الذين يذهبون يستفتون ليجدوا فى الإستفتاء شماعة يعلقون عليها أخطائهم ، ولست

فى حاجة إلى أن أبحث عن شماعة لأنى لا أبحث عن أخطاء ، وليس من رأيى أن أورط بقيادتى من أعطونى الزمام ، فى أمور ليس يميل إليها من البداية ، وإن إستطعت إمالتهم إليها بالاستفتاء ، وهو أمر سهل جداً ، وليس فيه إنجاز إلا إنجاز الشماعة ، والشماعات سهلة ورخيصة ولكنى أعتقد أن الكتف أولى بالمسئولية من الشماعة فإذا ناء فليكن كتف آخر ، ولا تكن شماعة !! ، وهكذا كان حالى مع الزملاء حين ناقشتهم فى الأمر فقالوا أنهم سينامون لتوهم فتمنيت لهم النوم الهادىء .

وبحثت عن الرئيس فصدق ظنى أنه قد ذهب إلى مكان آخر يليق بإنسانيته السامية !! ناديت على السكرتير العام وقلت إنه المسئول الآن ، وإنه من العار أن يذهب الرئيس هكذا ، وأنه من واجبه أن يبحث لى الآن عن الفندق المناسب .

لم يجد السكرتير بداً من الاعتراف بصحة ماقلت ، وذهب يبحث عن الرئيس فاتضح له أنه ذهب إلى حيث توقعت . وكانوا على علم أن هناك فندقا قريبا من هذا النزل ، فبعثوا إليه فعلموا أن الأماكن كلها مشغولة إلا شيئاً من المكان يمكن إعداده على نحو ما فيكون منه شىء لايتميز على هذا الفندق بكثير .

ولم أوافق على هذا الحل ، وعلمت أن الأتوبيس لايزال قريبا منا ، فذهبوا إليه وأتوه وجاء معى السكرتير واثنان من الأساتذة إلى حيث ذهب الرئيس وطلبوا إلى أن أنزل مع أحدهم إلى حيث ينام الرئيس ، فرفضت ، وقلت لهم (فى شدة لاتعطى أنطباعاً بأنه من الممكن أن أتساهل) إن الواجب أن يذهبوا ويأتوا به .

كنت على حق ، وكان على ضلال ، أو هكذا هىء لىّ ، وليس حل إلا أن يرضونى ، وذهبوا ، وجاءوا به وأراد أن يدخل علىّ بأساليب السياسة فلم أترك له الفرصة وسألته فى شىء من الصراحة والصرامة والمباشرة ، هل يليق هذا المكان بالإنسانية ؟ فلم يحر جواباً ، وأنا أكرر حتى قال لا فأردت أن أتمادى فى توبيخه ، وقلت له هل يليق بك ؟ فرد لا ، فقلت له لم تأت إلى حيث بعثت بنا لتمطئن علينا قبل النوم .

هنا أدرك الرجل أن ليس سبيل إلى تبرير أى من أخطائه ، فاعتذر ، وأراد كما يريد كل مخطىء أن يبرر الأخطاء ، فقال إن زوجته هنا تعبانة ؟ وأن هنا سبع بنات لابد لهم ممن يرعى شأنهم ، بالله ، ياللزوج المشفق على زوجه ، وياللرجل حامى حمى القوارير ! ، ولم أعر رده جواباً ولا تعليقاً ، وإنما تركته يقودنى إلى حيث احتل لنفسه ولمجموعة من أصدقائه المقربين ممن ليسوا بالأعضاء الأوائل فى المؤتمر هذا المكان .

لازلت بالرئيس أوبخه توبيخاً شديداً على فعله وإهماله ، وهو يعتذر بأنها تجربة ، وبئس التجربة ، وبأنها (Exprience) هكذا أخذ يكرر ، وبئس الخبرة التى تأتى هكذا ، أو التى تأتى بهكذا .

* * *

كانت الساعة قد تعدت الرابعة عندما وضعت الرأس على بساط رقيق قد وضع على الأرض ، وغطائى السقف على بعد ثلاثة أمتار ، وفوق السقف سماء الله . وتوكلت على الله .

ثم وجدتنى أستيقظ على هزهم سريرى ، فسألتهم عن الساعة فقالوا إنها الحادية عشرة ، وأنهم يوقظوننى لأننا ذاهبون للتو !! كوالبور ثم إلى كراد ، وأخبرتهم بما سمعت من الرئيس من أننا لن نتحرك إلا الثالثة ، فطلبوا إلى أن أغسل وجههى لألحق بالأتوبيس .

لم يبدو على أنى تحركت فى نزمى قيد شعرة منَ التعب ، ومابالك بى اذ قمت من نومى إلى المرآة الأثر الوحيد من الحضارة فى الحجرة الراقية ، فوجدت شعرى على النحو الذى مشطته عليه فى اليوم السابق ، ليس فى حاجة إلى أقل شىء من التهذيب أو التمشيط .

لم أكن قد تناولت إلى هذا الوقت شيئا من الطعام ، وألحوا على ثانية فى أن يأتوا إلى بالشاى ، أو القهوة ، وأتعلل بالتلوث الذى قد يكون فيهما ، فلا يجد الواحد منهم إلى اعادة الكرة على سبيلا .

غير أنى لم أكن أفرغ من إقناع الواحد من هؤلاء حتى يأتينى الآخر يرجونى أن أتناول شيئاً ، وهكذا ظللت على نفس الحالة من تكرار شكر كرم

السؤال وأريحية الإهتمام ، والتكرار ممل ولو كان فى أعظم المشاعر .

* * *

عبرنا حدود المنطقة التى تتبع إدارة الغابات والأمر فى هذا إذا إحتاج إلى تشبيه يقربه من ذهن القارىء ، فله أن يتصور حدود المناطق العسكرية ، ثم كنا على مشارف البلدة الصغيرة ، فاشترينا بعض الموز والبطيخ ، وذهب جفاف حلقى ! .

هانحن نعاود الاستمتاع برحلة الأمس الممتعة على حواف الجبال بمحيط الجبل فلا تتركه إلا عندما يتصل بالجبل الذى يليه فى السلسلة المتواصلة ، لم يكن إمتاع اليوم بروعة إمتاع الأمس الذى سبق إلى الذهن والنفس ، والأمر فى الإمتاع يتناقص بالتكرار .

ولا أفتأ بين اللحظة والأخرى أسأل عن كوالبور لاسؤال الإستزادة من المعرفة ولكنه سؤال التنفيس عن الضيق الذى أنا فيه من طبيعة السير الإهتزازية للأتوبيس .

وكنت قد طلبت إليهم أن يجعلوا طعامى فى المطعم القادم من الفواكه فحسب ، فإذا هم يرسلون عاملاً بعشرة روبيات وحددوا له مايشتريه نصف كيلو من هذا النوع ، وربع من ذاك .... إلخ .

وبقيت أنتظر صاحبنا الذى ذهب ، فتأخر كثيراً ، وأتأمل المطعم الذى نزلنا فيه فى كولبور هذه ، كان المطعم من دورين وكان صاحبه رجلاً نشيطاً أخذ يرحب بضيوفه ، ويذهب بالزبائن الآخرين إلى القاعة السفلى ، ويتابع تقديم الطعام فى إهتمام .

وأعلن أحد الزملاء فى صوت عال أن إلتهاب الكبد الوبائى قد إنتشر فى كوالبور فى الأيام الماضية ، لهذا فهو يحذرنا من شرب الماء .

بعد قليل عاد العلماء فأعلنوا أنه لم يثبت وجود الميكروب فى الماء ولهذا فهو مباح .

وشرب الجميع . هذه طبيعة الهند . ليس من الصعب أن تغير إتجاهاتهم إذا ماوجهت كلامك إلى العقل ، ولكن من الصعب أن تغير الأمور إذا إتجهت

إلى تراث الخرافات الذهنية .

وأخيراً جاء الرسول بالفاكهة ، وأحسوا جميعاً بما فيها من مخالفة قواعد الكرم فالموز غير ناضج ، والعنب من النوع الردىء المر . كذا اليوسفى ولكن هذه كانت على أية حال خيراً بكثير جداً من التوابل مهما نضج طعمها ولاقى القبول .

* * *

تأخذنى الفكرة بعد الفكرة لأسارع بالسفر من بلاد الأوبئة ، فقد أصبحت صحتى اليوم لا تقوى على تحمل النملة تسير على الجسم من دون أن تداعبه ، فما بالك بهذه الأوبئة اللعينة تقرأ عنها فى الصحف الهندية المكتوبة بالإنجليزية والتى تحمل ذات العناوين التى تحملها الصحف الإنجليزية الأمريكية الكبرى ، التايم ، الإكسبريس وهلم جرا ..

وتسمع عنا من الزملاء الهنود ، هذا إذا أهملت جانباً ما درسته فى الطب أو ماسمعته من الذين سبقونى إلى زيارة هذا البلد .

وتخرج بعد الغذاء لزيارة مبنى الجامعة الرئيسى فى كوالمبور ، ونمر ببعض الكليات فأعجب لهذا الجمال الذى صاغ به الفنان الهندى واجهات هذه الكلية ، وأسأل فيقال إنها كلية الزراعة ونمضى الى المبنى الرئيسى وعلى الباب قد وقفت لوحه رخامية على عمودين رفيعين جانبين على نحو ما نفعل باللافتات الخشبية فى مصر وقد كتب عليها ما ينبىء عن تاريخ نشأة هذه الكلية كمعهد علمى رفيع .

* * *

من الصعب أن نخرج من مطار بومباى فى وقت قصير ، ولهذا فإن شركات الطيران تعنى عناية خاصة بأن تؤكد عليك بالحضور قبل موعد الإقلاع بثلاث ساعات على الأقل ، وتبدأ مكاتب الفحص والوزن عملها قبل الإقلاع بثلاث ساعات فعلاً .

وعليك أن تقف فى البداية فى طابور طويل لتدفع ضريبة مغادرة الهند (مائة روبية كاملة) يدفعها كل مغادر هندياً كان أو غير هندى قضى يوماً أو

أياماً ، سافر للعلاج أو للراحة ، وأخذت استقصى حتى اجد فئة يستثنوها ، فقالو إنهم يستثنون الدبلوماسيين على مضض .

ليس من السهل أن يتم العمل في مطار بومباى فى الفحص على اكثر من مكتبين ، فراحة الزبون والاهتمام بأمره هنا ليس بهذه الدرجة من الأهمية على الإطلاق ، والصفوف تطول ، مهما طالت فإنها لن تبلغ الصف الذى ينتظر الأتوبيس وقد بلغ عدد الواقفين فيه اربعمائه فرد .

مظاهر الوداع المروعة تجدها هنا على نحو يبحث عن كاميرات السينما والتلفزيون ، ليحتفظ بهذه المناظر فيضعها فى مونتاج الأفلام ، هذا شاب أخذ نفسه بشيء من الوجاهة لم يكمل له بعد ، مسافر ، متوكل على الله لا شك فى ذلك ، لعله يبغى العلم أو العمل ، يبغى الجاه أو المال ، ولكنك تجد حوله طابوراً طويلاً من النساء والرجال لا يبكون ولكن تظهر عليهم إمارات الحزن والأسى حتى إذا امسكوا به أو همّوا ان يمسكوا به أخذوا فى البكاء والعويل الشديد الذى لا أول له ولا آخر ، ولكن الواحد منهم لا يبدأ هذا البكاء إلا إذا عانق صاحبنا وقبله .

القبيل كله يجيء لوداع الفرد منهم ، وهى فرصة الضابط (أو امين الشرطة) أو العسكرى الصغير ليهزهم ويبعدهم عن صالة التوديع ، فهى ليست لهم ، ويذهب العسكرى فيدخلون ، ثم يأتى فيخرجون ، ويأتى غيره فيدخلون ، ويأتى غيرهما فيخرجون وهكذا بلا رابط ولا ضابط . المسألة شخصية إلى أبعد الحدود .

* * *

لو كان معك بعض العملات الهندية قد تبقت فإن لك الحق فى استبدالها ، ولكن هذا الحق مقيد بشروط ، وانظر إلى الروتين ، لابد أن تطلعهم على

تذكرتك ، والتذكرة هنا لا تصلح إلا اذا كنت قد وزنت امتعتك بالفعل وأخذت كارت الجلوس (البوردنج كارت) وأن تريهما وأن ترى جواز السفر ليأخذوا رقمه وتاريخ صدوره ومكان الصدور (كذا) وأن ترى ما يثبت أنك أنت صاحب هذا الجواز قد حول مبلغاً وهو داخل وبالطبع لابد أن يكون المبلغ الذى حولت أكثر من المبلغ الذى تحوله ولابد ان ينظر فى صورتك وفى الصورة التى فى الجواز ، ولابد أن يحرر بذلك قسيمة من أصل وصورتين ، يعطيك واحدة منهما ، ولابد أن يأخذ القسيمة الأولى كمستند .

* * *

لم يكن قد تبقى معى من الروبيات إلا ما يعادل دولارين أو أقل قليلاً فأخذت أبحث فى جيوبى حتى اكملتها ما يوازى ما تتطلبه الاجراءات ، وذهبت سينما الروتين لأشاهد هذه الاجراءات مجاناً . اندمجت فى الفيلم الروتينى وأنا اتابع تفصيلاته ويد الموظف (الشابة) وهما ترتعش حين تكمل هذه الاجراءات وحين يأخذ رقم الباسبور المطبوع فلم يجده مخالفا للرقم الذى فى ورقة التحويل الأولى فيلتفت (وأنا ساكت لا اظهر أى ضجر منه لأنى لا أحب ان الفت نظره ولأنى أريد أن اشاهد الفيلم لا أن اشارك فى إخراجه) إلى أن هناك رقما آخر .. وهكذا . لا علينا أن نقضى فى استقصاء ما فعل بنفس الروتين .

إنما نرجع الآن إلى صالة الجوازات ، هذا الضابط يبحث فى كل أوراقك وتاريخك والبلاد التى سجلت اسماءها على جوازك ، ويسألك اين تذهب ، ويتأكد أن البلد الذى ستذهب اليه قد اعطاك الفيزا وليس له شىء من ذلك ، ولا فيه ولا عليه منه شىء إنما هى مشاغل يشغل بها أنفسهم الذين لا يجدون الهموم !

ولا يزال بك هذا الضابط حتى تسلم الروح لا إلى بارئها ولكن إلى آخر يبحث فى إقراراتك التى دخلت بهما وأى ذهب أو كاميرا أو أشياء قيمة كانت معك ويقارن بين هذا وذاك وثالث يفتح الحقائب التى بيدك ويفتشها ركنا ركنا فى شىء من المهانة .

ورابع يفحصك فحصاً دقيقاً ، ثم تذهب فى طابور يتأكد أنك قد دفعت ضريبة الخروج من الجحيم ، ويختم ذلك ! وآخر يتأكد من اجراءات الجوازات ويختم لك ! وثالث ورابع .. وفى هذا المطار شاهدت لأول وآخر مرة فى حياتى ما يسمى بالتفتيش الذاتى للسيدات !!

ثم طابور طويل لنذهب إلى قاعة الانتظار لا التى تؤدى إلى البوابة ، ولكن التى تؤدى إلى سلم آخر يؤدى إلى قاعة الانتظار التى تؤدى إلى البوابة حيث هذه الدوائر التلفزيونية المغلقة ، قد جلس على إدارتها صبى صغير لا أدرى هل هو فى السابعة أم فى السبعين واخذ يلعب تارة بحرف **A** وتارة ب **B** وتارة ب **X** وتارة بعلامة استفهام ، وتظهر الشاشة كل هذا اللعب فلا ينتبه أحد ليطلبه على التليفون فينهره . ، ويستمر الصبى فى لعبه ساعة طويلة قضيناها فى القاعة التى وصفت .

وليس هناك أمل من الانتظار على هذا النحو وموعد الاقلاع يقترب فلا يناديك أحد . ثم يجىء من ينادى فيقف الناس ويقف لهم على أول درجة من درجات السلم يحول بينهم وبينه إلى ان يتكوموا فيفسح له .

ونذهب لنركب الاتوبيس فتجد الناس الذين سبقوك قد حشروا فيه حشراً ، والرجل مصر على أن يزيد الحشر .

وتتطلع إلى الطائرة فلا تجد أمامك طائرة وإنما بمعنى الاتوبيس على أرض المطار بين عشرة اتوبيسات اخرى من أمامه وعن يمينه وعن شماله ومن خلفه . ما هذا .. أشارع غير الشارع ؟ وفى مطار دولى ؟

ثم يقف ويقف كل من جاء بعده واسأل السائق فيقول إن طائرة ستقدم من هذا الطريق ويأتى موتوسيكل على النحو الذى تشاهده فى شوارع القاهرة حين تقف الاشارة بالعربات فيشق هو العربات وتأتى بعد عشر دقائق طائرة عملاقة من طائرات الخطوط البريطانية فتقف والناس تصفق لمهارة الطيار ، والاشارة لا تفتح لنا فهناك طائرة أخرى قادمة ، هندية ، ولكن الطيار ليس على القدر من المهارة الذى يتيح له (فى عرف الناس) ان يصعد عند النقطة التى وقف عندها الانجليزى .

وتفتح لنا الإشارة الخضراء الطريق إلى الطائرة ، والطائرة إيرباص ، وباب واحد ، والجمع محتشد ، يدفع بعضه بعضاً ، وركاب الدرجة الأولى المساكين محشرون وبينهم ركاب الثانية ، وعلى باب الطائر الوحيد وقفت مضيفة باكستانية لها شبه كبير بالمصريين تدخل الناس واحداً بعد واحداً بعد أن تسألهم عن أرقام مقاعدهم وتشير بعدها على نحو تقريبي بين المقعد القريب جداً أم قريب أم بعيد أم بعيد جداً .

وكثيرون لا يقرأون ، وكثيرون يركبونها لأول مرة ، وخذ من هذا .

والطائرة لا تقوم ، ويقفل الباب ثم يفتح ثم يقفل أربع مرات ويعود الطيار ليعتذر ويقول إننا سنتحرك (إن شاء الله) وساعتان على هذا الحال . لكن ما إن قامت الطائرة حتى سارت على نحو مريح .

* * *

ليس الفقر فى الهند راجعاً إلى قلة الموارد ، ولا إلى كثرة السكان ، هذه حقيقة فى موضوع الفقر الهندى ، سنطلقها الآن من دون أن نقيم عليه الأدلة والبراهين ، ولكننا سوف نجدها واضحة أمام الأعين إذا ما تأملنا مظاهر هذا الفقر .

الفقر فى الهند هو فقر عمل ، الهنود قوم يمتازون بالجلد على العمل ، وهم يستطيعون إتقانه ، واكماله ، والتفانى فيه ، وهم قبل ذلك بشر ، خلقوا ليعملوا ليحصلوا على لقمة العيش ، ليعيشوا ، وعلى عادة الفهم الانسانى البسيط أدركت الفطرة الانسانية أنها خلقت لتعيش ، ولازلت على إقتناع بهذا المبدأ ، حتى وان انتحرت بعض النفوس .

ليس فى الهنود أنفسهم بلادة ولا إحجام عن العمل ، ولا رضا بالذل ولا بالفقر ، ولا بالمكسب القليل بدلا من الكثير ، وانما المسألة فى بساطة شديدة انهم لا يجدون ما يعملون .

وتعال معى نناقش المظاهر :

١) هل هذا الرجل الذى يقضى نهاره وليله (لأكثر من ١٨ ساعة) يبيع الفول السودانى المقشر أو الحمص أو الترمس أو جوز الهند أو قطع الحلوى البسيطة

أو أو أو .. الخ يعمل ؟ الجواب أن لا ، هذا ليس بعمل على الاطلاق ، أن يجلس هذا الانسان بكل ما حباه الله به ليقدم كل عشرة دقائق قرطاساً من هذه القراطيس .

ولقد كنت منذ سنوات قريبة أمرُ بأمثال هؤلاء فى مصر أو يمر بى أمثالهم ، فاتأمل حالهم ، وكان الجنيه يومها من الدخول المتوسطة ، وأسأل نفسى هل يستطيعون أن يبيعوا فى اليوم كله بخمسين قرشاً فلا أجد وسيلة لذلك إلا أن أراقب بنفسي ، فراعنى ما وجدت من أمرهم اذ لا يبيعون بأكثر من ربع جنيه أو ثلاثين قرشاً أى أن حجم تجارتهم كله (رأسمال واستثمار واجور وأيد عاملة) لا يتعدى ربع الدخل المتوسط فى أمة كانت تعانى يومها من كل شيء لكى لا ترفع صوتاً فوق صوت المعركة .

هذا هو الحال فى الهند اكثر من ٢٠٪ من أيديها العاملة ـــ بلا مبالغة ـــ تقضى حياتها فى مثل هذا النوع من التجارات التى لا تبلغ فى رأسمالها مرتب يد من أيدى من نسميهم فى جهازنا المركزى للتنظيم والإدارة بالخدمات المعاونة (الفراشين والسعاة والحجاب) .

٢) هؤلاء الشحاذون اللذين يمثلون ١٠ ـــ ١٥٪ من عدد سكان الهند ، والذين يتنوعون ما بين طفل وطفلة وصبى وصبية ورجل وامرأة وشيخ وعجوز ، وشاب وشابة هل كل أولئك انحطت نفوسهم إلى الدرجة التى رضوا فيها بكل هذا الهوان ؟ لا أظن أن الانسانية التى كرمها الله أعظم تكريم ترضى لنفسها هذا الهوان إلا أن تكون الظروف أقوى منها بحيث تفضل هذا الهوان على هوانات أخرى !

٣) حين كنت فى مطار الكويت ، أخذ الضابط بعد جوازات هندية أمامه حتى بلغ من عددها الستين جاءت جميعاً واحداً على طائرة واحدة هى طائرة بغداد ثم حدث زميله بالذى وجد من هذا العدد الضخم فسأله فقال فى مزاح هادىء الأعصاب جاءوا ينشرون الدعوة !! ولست فى حاجة إلى أن أقرر صعوبة ظروف العمل فى بغداد يومها إذا ما قورنت بالكويت .

الباب الثانى : أمريكــا

فى ندوة الشيخوخة والتقدم التكنولوجى التى نظمها مركز بحوث الشيخوخة فى جامعة جنوب كاليفورنيا بلوس انجليس استمعنا إلى محاضرة قيمة لأحد الأساتذة الذين جمعوا فى مؤهلاتهم بين تخصصات مختلفة حدثنا فيها عن مستقبل الشيخوخة فى القرن الحادى والعشرين ، وقد استعان كثيراً بالشرائح الملونة . وناقش قضية التصنيع وإعادة التصنيع وما بعد التصنيع واللاتصنيع " De , Re , Post " وتحدث عن عصر المعلومات ، المعلومات فى مجال المال ، والطاقة ، والناس ، والسفر ، والخامات ، والمبانى . وكانت اكثر قدراته فى بناء أفكاره تعود إلى موهبته الفذة فى الإسناد كما يسمونه فى علم البلاغة العربية ، أى ترتيبه للازدواج من العناصر مع بعضها فى مجموعتين تأتيان معاً فى عبارات متتالية من زوجين .

تحدث عن الكمبيوتر : الماكرو ، المينى ، الميكرو ، وأصغر الانواع وهو Chip وعن إمكانية أن يقوم الكمبيوتر مع التقدم التكنولوجى بالحديث والاستماع والتركيب .. الخ . وقال إنه يتصور أن الكمبيوتر الذى سيكون مطلوباً فى القرن القادم سوف تكون له الخصائص الآتية :
أن يكلف أقل من دولار ، وأن يصلح لمائة سنة ، وأن تحمله فى جيبك .. هذه الجملة تعطيك فكرة رائعة عن طريقة تفكير الأمريكان للتقدم فى المستقبل ، فهذه العناصر الثلاثة هى بلا شك العناصر التى تحكم تفكيرهم فى صياغة التطويرات التكنولوجية على أجهزتهم المعاصرة فى إدارة الاعمال وفى الطيران ووسائل المواصلات والاتصالات والتعليم والاعلام .. إلى آخره . لابد أن يضعوا فى الاعتبار عنصر المال . كم يكلف ؟ ولهذا فإنهم لا يجدون غضاضة فى أن يعتمدوا على صناعات خارجية تتيح لهم الشىء بثمن أقل مما تنتجه المصانع الأمريكية .. وعلى الرغم مما نسمعه هنا من أن الولايات المتحدة تفرض جمارك

وضرائب باهظة على الخامات والمصنوعات القادمة لها من اليابان أو أوربا . وهذا صحيح ، إلا أن الحقيقة مع ذلك تبقى أن الامريكان وحتى قادتهم لن يشتروا سلعة أمريكية يجدون نظيراً لها من صناعة غيرهم بأقل بجزء من الدولار إلا اذا كان لفرق الثمن فرق ملموس فى الجودة !

العنصر الثانى وهو العمر .. وعلى الرغم من أن الشائع عن الأمريكان أنهم أصحاب التبديل والتغيير والموذة .. وهذا قد يكون صحيحاً الى حد كبير فيما يتعلق بالملابس ، إلا أن الأمر ليس كذلك فى كثير من مشترياتهم ، خاصة وأن العقلية الاجتماعية المتقدمة تفهم أن العمر والقدرة على التعمير ليستا إلا صورة من صور التعبير عن الجودة أو المتانة أو الرصانة .. الخ .

وقد يتصور البعض أن العنصر الخاص بصغر الحجم أمر ليس فى حسبان الأمريكان ، ولكن العكس هو الصحيح ، على الرغم من الفكرة التى قد تعكسها العربات الأمريكانى الفسيحة . أو العمارات الشاهقة من ناطحات السحاب .. وقد يستقيم الأمر ويكون اكثر قبولاً عندنا إذا فهمنا أن السيارة ليست عندهم إلا بيت كامل صغير ، وأن العمارات ليست إلا مدناً كاملة ارتفعت رأسياً بدلاً من أن تمتد افقيا . وهذه هى الحقيقة .

ويتصور الاستاذ الأمريكى أن يكون هناك كمبيوتر فى المطبخ تقول له انك تريد أن تأكل روستى .

— من أى نوع ؟
— بقرى .
— كم وزنه ؟
— ١٠ رطل .
— كيف النوع ؟
— المتوسط .
— متى ؟
— الساعة ٥,٣٠ .
— OK

وعن خصائص سيارات المستقبل كان تصور الرجل أن تكون بلا حوادث وبلا تلوث على أن أهم الاسئلة الكبرى التى تضمنتها هذه الندوة كان : ما هى الماكينة المخصصة لصنع السلام ؟

أما اساتذة الطب ، والطب الوقائى بالذات فقد تحدثوا فى عدة محاور ، من هذه المحاور ما ذكر أحدهم من أن :

هناك جوانب غير قابلة للتطوير " Nonmodifiable " فى الشيخوخة وهى :

(١) تصلب جدران الشرايين .
(٢) تكون المياه البيضاء فى العين .
(٣) تغير لون الشعر (Graying) .
(٤) احتياطى الكلى .
(٥) فقدان ليونة الجلد Elasticity of skin .

وفى المقابل فإن هناك جوانب قابلة للتطوير Modifiable فى الشيخوخة وهى :

(١) قلة احتياطى القلب .
(٢) تسوس الاسنان .
(٣) تحمل الجلوكوز .
(٤) مستوى الذكاء .
(٥) الذاكرة .
(٦) لين العظام .

ومن ألطف المفارقات (الأمريكية) بين الأمراض فى الماضى والحاضر تلك التى حدثنا عنها أحد أقطاب الندوة حين قال : كانت أمراض الماضى حادة ، معدية ، قابلة للعلاج ، كان أبرز الأمثلة على ذلك : الجدرى ، والدفتريا ، وشلل الأطفال ، والتيتانوس ، والسل ، والزهرى ، والتهاب الرئة والزائدة الدودية . أما أمراض اليوم فهى مزمنة ، تحللية Degenerative ، متعددة ، غير قابلة للعلاج وأهمها خمسة هى : تصلب الشرايين ، السكر ، الحوادث ، السرطان ، المفاصل .

* * *

انظر إلى النظام كيف يبلغ حده مع الأمريكان .. فى مؤتمر السيكولوجيين السنوى الحادى والتسعين كان هناك ركن خاص بالرسائل ، معروف سلفا أن الترتيب أبجدى ، عليك وهذا سهل جدا أن تعرف أين سيكون اسمك ، فى أى صندوق ، من الصناديق الثلاثين ، الفهرس أمامك ، الصندوق الأول مخصص لكل من يبدأ إسمه بحرف AA حتى AM مثلا وهكذا ، تستطيع أن تذهب وقتما تشاء إلى الصندوق الذى تنتمى إليه فتنظر فى الصندوق التاسع مثلا هل جاءتك رسالة أم لا ؟.. أما أن تكتب رسالة فهذا هو الأسهل ، (الفورمات) جاهزة وموجودة بالآلاف ، كلها نفس الحجم نفس الطبعة ليسهل العمل ، فى أعلى القصاصة اسم من ترسل إليه ، طبعاً إسم العائلة هو المهم وعليه العمل فى الترتيب ، ولكن هناك أيضا خانة الأسم الأول .. إذا انتهيت من كتابة رسالتك تركتها للسكرتارية الواقفة فى نفس المكان فوضعتها فى مكانها من الصندوق فى نفس الوقت أو على أكثر تقدير بعد دقائق .. أنظر إلى هذا الأسلوب أليست هذه هى '' فعالية الإتصالات '' ؟ نظم إتصالات محلية جداً ، فعالة جداً ، عملية جداً ، رخيصة جداً على اللجنة المنظمة للمؤتمر ، وأنظر إلى نتائجها ..

ولكن هل تستطيع أن تطبق مثل هذا النظام بهذه الرشاقة فى دولة من دول العالم الثالث ؟ ستجد من يقول لك فى البرلمان الحر إن على المؤتمر بعد أن يتلقى الرسائل أن يترك أمر توزيعها لهيئة البريد لأن هذا هو إختصاصها الذى كفله (حدده) لها الدستور . وهذا تعدى على الاختصاصات ، إذا لم تكن تصدقنى فجرب ! .

* * *

الرفاهية عند الأمريكان لاحد لها على الإطلاق ، كل شىء هنا ليس مسخراً لراحة المواطن ، ولكن لرفاهية المواطن ، ومعظم الشكوى التى نستمع إليها هنا والمشكلات التى يقال إن أمريكا تعانى منها هى مشكلة الرفاهية إذا اعتورها أى انتقاص . بعبارة أهل الحساب إذا نقصت الرفاهية من ٥٠٠٪ إلى ٤٩٣٪ ، وهذه هى الحقيقة ، هل تذكر أى مكوجى تمر عليه فى أحد أحياء القاهرة أو الأسكندرية الراقية جداً ، تدبر من اليوم الطريقة التى يلين بها الثياب

قبل أن يكويها ، أليست هى الماء يرشه من فمه ؟ أو إذا أصابه شىء من التكنولوجيا جاء ببخاخة يملأها بالماء ويستعملها من حين لآخر .. ولكن الأمر فى أمريكا المرفهة يختلف ، هل تعرف عبوات الروائح (أو البيرسول) التى تضغط على زر فى أعلاها فينبعث منه السائل أو الغاز ؟ .. نفس الأمر هنا بالنسبة للسائل المعطر الذى ترشه على الملابس قبل أن تمر عليها بالمكوى ! عبوات مخصوصة من الماء المعطر أو قد يكون شيئاً غير الماء . فلنقل السائل المعطر .. تسأل كم ثمن العبوة التى تبلغ نصف لتر ؟.. حوالى دولارين (فقط) !! .

* * *

أتوبيسات داخل المدن هنا مرتفعة الثمن إلى حد بعيد ، خمسة وسبعون سنتاً للأتوبيس فى نيبورك وفيلادفيا ، تنخفض إلى ستين سنتاً فى لوس أنجلوس وبعض بلاد كاليفورنيا .. أى حوالى تسعين قرشاً (بعملة اليوم) للمحطة أو للمحطتين .. ولكن على اليد الأخرى : الأتوبيس مكيف تماماً .. مهيء تماماً .. مرفه تماماً .. على اتصال لاسلكى بقاعدته .. ولكن ماينبغى أن نشيد به فى أمر هذه الأتوبيسات بالنسبة لمثيلتها فى أوربا أمران :

الأول : أنك تستطيع فى بعض الأوقات أن تأخذ الأتوبيس من أى ناصية ، على حين أنه من المستحيل فى باريس مثلاً أن تأخذه من محطته بعد أن يغلق أبوابه ! وهو لايزال واقفاً فى المحطة بحكم الإشارة القريبة مثلاً !!.

والأمر الثانى أنك لست فى حاجة إلى أن تشترى التذكرة قبل أن تركب الأتوبيس ولا أن تغير نقودك لتجهز عملات معدنية ، فالماكينة بجوار السائق تفعل كل ذلك برشاقة .

على ذكر الماكينات الرشيقة لابد أن تشير إلى الماكينة التى (تفك) لك الدولار الورق إلى ثلاثة أرباع وثلاث خمسات وعشرة سينتات تضع لها الدولار فتسحبه وتخرج لك أجزائه السبعة من الناحية الأخرى .. والماكينة الضخمة التى فيهاأربعون صنفاً من التسالى (الوجبات الخفيفة) تختار فيخرج لك الشىء وتخرج لك باقى النقود .. وهكذا .. ولست مبهوراً بهذه الماكينات جميعاً لأنها تقوم على فكرة علمية أصبحت فى متناول طلابنا فى المرحلة الثانوية (دراسة

وتطبيقاً لو أرادوا) ولكن الذى أحب أن أشيد به هو إستغلال الفكرة فى كل منحى مناحي الحياة عل أوسع نطاق توفيراً لليد العاملة حسب مايقولون ولكن الأهم فى رأيى هو إراحة البشر من البشر !.

ولكن هل تحتاج أمريكا وأوربا اليوم إلى توفير اليد العاملة ؟ وهى التى تعانى من البطالة ! التى تزداد معدلاتها يوماً بعد يوم ؟ هذا سؤال إقتصادى صعب ! ولكن لن يضيرنا شيء إذا ماأخذنا نفكر فى أمره على طريقة أهل السبهللة ؟ أى بعبارة تقول : لماذا لانشغل هؤلاء العاطلين بدل هذه الماكينات ؟ ، إذن فيجب أن نناقش فكرتهم : كم تكلفنا الماكينة للقيام بهذا العمل فى الشهر واضعين فى الاعتبار ثلاثة إضافات هى (الاستهلاك – التأمين ضد المخاطر جميعاً – الصيانة) طبعاً هذا بالإضافة إلى التشغيل .. فهل يكفى هذا ليكون دخل فرد من أفراد المجتمع الذين يعانون من البطالة ؟ هذا هو السؤال الصعب ؟ لأن إجابته سهلة جداً وهى أنه لايكفى ليكون عُشر الدخل الذى يحصل عليه المواطن العاطل تحت شعار التأمين ضد البطالة !.. ولكن بعض دول العالم الثالث لاتزال تؤمن أن شيئاً خير من لاشيء ، وهم يظنون أن تشغيل المواطن فى هذه الأعمال التى لاتثمر خير من تشغيل الماكينات . مع أن تشغيل الماكينات فى النهاية أجدى على الدخل القومى ولكن الدخل القومى لايتحمل أن يصرف للعاطلين ، والجو السياسى لايحتمل أن يتركهم جوعى إلى الدرجة التى تشعل نار بطونهم بالثورة والقلاقل ، وإذن فالحل كما رأيت بعينى رأسى فى ثلاث من هذه الدول أن تجد مواطنين كل حياتهم تعتمد على قدر من المال قد يبلغ خمسة دولارات هو كل أصوله الثابتة ورأس المال العامل .. أى أن تجد بائع الفول السودانى أمامه قصاصات من الورق يعمل منها القراطيس وأمامه كم كبير من السودانى يبيع منه بالخمسة قروش والعشرة طوال النهار لمائة مواطن وليس عليه إلا ينتظر المشترى كل خمس دقائق ، فيلف له القرطاس فى حركة رتيبة ويكيل له مقداراً . ثم يأخذ النقود يقبلها من ناحيتيها .. وهكذا .. الخ .

والسؤال السهل بعد ذلك هل هذا هو التشغيل ؟ أم هو إهدار الطاقة العاملة ! لاشك أن النظام الإقتصادى فى مأزق ! ، ولكن المرء يجد نفسه يحاول

أن يؤمن بأن خمسين فى المائة خير من لاشىء ولكن خمسة فى المائة ليست خيراً من لاشىء على الإطلاق !.

* * *

لم أكن أظن أنى سأرى مدينة أمريكية على هذا القدر من ... الذى عليه نيبورك .. المهملات تملأ الشوارع ، صحيح أن صناديقها كثيرة بل أكثر من أى صناديق فى أية مدينة أخرى ولكن البشر أكثر ، والحركة لاتنقطع ، والناس يندفعون إلى حركتهم لاتوقفهم الإشارات ، إنما كسرها هو القاعدة ، فإذا اتبعوها فإن البشر يسيرون عندما يظهر اللون الأصفر وينهون سيرهم قبل أن يظهر لهم اللون الأخضر .. وهكذا السيارت ... الكل فى تحفز .. وإذا كان الكل فى تحفز والكل يسبق حدوده فإن النظام يبقى أيضاً .. مثل ذلك كالرواتب الشهرية إذا صرفتها يوم ٢٨ بدلاً من يوم ٣٠ .. يأتى الشهر التالى فلايكون فى وسعك أن تنتظر حتى ٣٠ ، ولاحتى ٢٨ وإنما تتطلع إلى ٢٧ أو ٢٦ وهكذا .. هذه هى حقيقة الأمر فى أمر المرور فى نيويورك .. إنما يستاء من كل ذلك من كان مثلى يعانى من ساقه فلا يستطيع أن يجارى الناس فى هذا الإندفاع ..ولكنه يضطر لمجاراتهم فيصاب بالشد العضلى أكثر من مرة .. ولايفتأ يستريح حتى يصاب به مرة أخرى .

منظر لطيف لايستطيع الأنسان أن ينساه حين يجد هذه الصفوف من الكراسى الخشبية التى تقع إلى الواجهة الشرقية من مكتبة نيبورك . صفوف مسرح يعلو التالى عن السابق له ، وهى صفوف طويلة تتيح للمارة أن يجلسوا إليها أو عليها يلتقطون أنفاسهم ويتأملون بعيونهم الناحية الأخرى من الشارع الواسع الفسيح ، أو يتأملون الحركة السريعة المتوالية فى هذا الشارع الواسع الفسيح ، أو يلتهمون (لأن الأمور كلها تسير فى سرعة) ما فى أيديهم من طعام أو شراب إلا الآيس كريم فلابد لهم أن يتمهلوا وهم يلتهموه .

مركز اللقاءات فى نيبورك فى ميدان كولومبس مفخرة بلاشك للمدينة ، ولإدارتها ولإدارته ، ولهم أن يفخروا بهذا الطاقم الذى يعمل فيه ، والذى يلبى طلب كل طالب بالتليفون أو بنفسه فى دقيقة ، سرعة فى الفهم !! ، سرعة فى الإنجاز !! ، قنوات ميسرة جاهزة ، تسأل أين فندق كذا ؟ ، فيعطونك قائمة

بالفنادق كلها وكل عناوينها وأسعارها ، كل شيء متاح ، معلومات سياحية واقتصادية وعلمية ، كل ذلك يسجل فى قناة من التواضع المشوب بالإحترام لأن العلم لايجرى فى العالى .. قائمة الخريف تشمل المؤتمرات والمعارض الفنية والحفلات الموسيقية والمناسبات الأقليمية والمباريات الرياضية ..إلخ ، كل الأحداث معاً بنمط رفيع فى ملزمة أنيقة صغيرة الحجم .. ليس هناك أسرار عسكرية عند هؤلاء القوم .. ومع هذا فلا يستطيع أحد أن يصل إلى أسرارهم العسكرية .

فى واشنطون كان على أن ألتقى بأحد الموظفين فى وزارة الخارجية وهو المسئول عن مشاريع البيئة فى بعض مناطق الشرق الأوسط ، الترجمة الحرفية لاسم وزارة الخارجية فى الولايات المتحدة Department of State يصبح قسم الدولة ، بالتليفون قال لى إن الأقرب أن أدخل من مدخل شارع C ، وحين دخلت وقابلت الاستعلامات لم تمض دقيقة حتى كانوا قد اتصلوا به وتأكدوا من الموعد ، فوجئت بهم يعطوننى خريطة المبنى كله ، واضحة المعالم إلى حد مذهل ، كل حجرة وكل ركن ، بأرقام الحجرات ، ومواضع المصاعد ، ودورات المياه ..الخ ، ولم يطلب أحد منى هذه الخريطة .. هل هذا هبل أو عبط أو إغراء ؟ بالطبع لا . لأن الحماية محفوظة ، والأمن لايتأتى بالتجهيل والتعتيم ، ولكن له وسائله التكنولوجية والعلمية والإستراتيجية .. ولكن اسأل عندنا عن خريطة مبنى مجمع التحرير الذى يضم مصالح من كل وزارات مصر لاعلاقة لها ببعضها ، هل تجد هذه الخريطة ؟ .. ولن تجدها إلا بعد أن ينصلح حال العقليات الإدارية عندنا !.. لاتستطيع أن تجد خريطة مبنى فى مصر إلا فى رأس عماله القدامى .

أذكر أنى عندما كنت ولم أتصل بحقائق الحياة بعد ، فى مبنى من المبانى المحترمة ، وجاء السباك يريد أن يصلح واحدة من المواسير الداخلية التى أصابها عطب ظهر أثره بطريقة مقلقة للراحة ، فوقفت معه ، فلمست أنه لايدرى من أمر المواسير وأصلها وفصلها ومن أين تأتى وأين تصب وأين محابسها ، وكيف لو قفل هذا المحبس ماذا يتأثر ..إلخ ، لايدرى شيئاً ، وفوجئت به يعتذر أن

هذا هو أسبوعه الأول .. وكان يبدو أنه عين بالواسطة ليأخذ درجة العامل الفنى الخالية عادة فى مصالحنا .. بينما لاتوجد له درجة بين عمال الخدمات المعاونة (وهى الدرجة الأقل) .. ثرت فى وجه العامل الشاب ونصحته أن يذهب فيحضر خريطة السباكة الخاصة بالمبنى.قبل أن يبدأ فى أى عمل ، وجاء زملائى وكنا أيامها ندرس علوم التشريح فضحكوا علىَّ وظلوا يضحكون لمدة أسبوع .. كنت أظنهم يقسون فى الحكم على بلدهم التى قالوا أن ليس فيها خريطة واحدة مما أقول عنه .. ولكن ثبت لى بعد ذلك حين توالت حوادث المواسير فى شوارعنا الكبرى أنى لم أكن أفهم – ولعلى لازلت – فى تشريح الحياة المصرية .

* * *

الازدحام فى نيويورك يفرض أن يكون هناك نظام ، حتى لو تحول هذا النظام إلى شىء ثقيل من الناحية الذوقية ، ولكنه على كلٍ أخف من أن يفاجىء الجمهور بالازدحام الذى يكون مثلا فى شركة مصر للطيران فى شارع سليمان أو فى شارع عدلى .. حين قصدت الخطوط الجوية البريطانية وأخذت مقعدى فى الصالون ، جاءت إلىَّ إحدى الموظفات وطلبت إلى أن آخذ نمرة ! قلت من أين ؟ فأشارات إلى ماكينة ؟ كان رقمى ٧٢ ، وكان الرقم الذى يخدمونه ٦٥ وكن ثلاث موظفات ، ربع ساعة أو أكثر حتى جاء دورى .. ولكن كان الله فى عون من انتظرونى ، فعندما إنتهيت وخلا مكانى كان هذا المكان من دور رقم ٧٩ .

وبينما كنت أنتظر فى شركة الطيران هذه ، دخل رجل يلبس لباساً غريباًهو خليط من أزياء كل جزر العالم ، إنما يظهر من هذا الزى كله شيئان مميزان ، هما هذه الطاقية (أو غطاء الرأس) الخضراء التى عمت رأسه على نحو مايفعله فى بلادنا من يزعمون الإنتساب إلى رسول الله ﷺ ، ومع الطاقية لحية كثيفة !! .

والشىء الثانى كان علم بريطانيا العظمى وقد إتخذه كإزار فوق كل ملابسه التى تغطى الجزء الأعلى من جسمه ، وقد أخذ هذا الدرو ش ينظر فى

المطبوعات الموضوعة للتوزيع ، ويقلب فى كل واحدة ، ثم يأخذ نسخة من كل واحدة منها فيضعها فى حقيبة علقها بيده ، وطول الوقت كانت تصدر عنه أصوات وأقوال وأغانى وأهازيج كعادة الدراويش . اقترب منى أكثر من مرة فأصابتنى الرعشة ..بقدر ماكنت مشوقاً إلى معرفة حقيقة هذا الدرويش بقدر ماكنت خائفاً أن يصيبنى من ضرر .. ثم إنه ذهب لأمره من دون أن يقضى حاجته .. هل دخل فقط لهذه المطبوعات . ناديت أحد رجال الأمن فى الشركة وسألته فوجدته أكثر منى جهلاً .. وإن لم يكن أكثر خوفاً لأن نيبورك هى بلد العجائب فى العالم الجديد كالقاهرة المحروسة فى دنيانا القديمة .

* * *

كانوا دائماً يقولون إن الأنجليز يسبقون الأمريكان فى روح الحضارة بخطوات واسعة حتى لو سبقهم الأمريكان فى مظاهرها بأوسع الخطوات ، قد لايكون التدليل على صحة هذا القول أو عدمه بالأمر الذى يتأتى للكاتب فى فقرة واحدة ، ولكن خذ فى رصيدك فى جانب الإنجليز هذه النقطة ، ألا ترى أنى حكيت لك عن الطابور فى شركة الطيران الإنجليزية وكيف تأخذ الدور ، ثم تنتظر أن يظهر رقمك على الشاشة لتنصرف إلى من يتولى أمرك .. ماذا تفعل شركة الخطوط الجوية العالمية (TWA) فى مقابل هذا .. زحمة ، موظفة واقفة معها ورقة وقلم تأخذ إسمك طبعاً لن تستطيع كتابة الكثير من الأسماء للوهلة الأولى لأن هناك كثير من الأجانب ، بل لأن نيبورك بلد الأجانب ، ولأن الذين يأتون شركة الطيران هم الأجانب جداً الذي سيتركون نيبورك بالطائرة .. تأخذ الأسماء ثم تنادى ، وكثيراً ماتخطىء ، والأدهى أنك لن تذهب إليها فى أول دخولك لأن عليها زحمة دائماً ، ومالك أنت والزحمة ، هناك شبابيك خالية ومع هذا كله يأتى مدير .. فينادى ويقول هل هناك ممن فى الكشف من يريد خدمات عاجلة (كختم التذكرة لتحويلها إلى شركة أخرى مثلاً) فيقوم إليه نفر فينظمهم ثم يأخذ فى أمر صرفهم بالحق وبالباطل ..هل تأخذ هذه النقطة فى صف الأنجليز ؟ .

أما أنا فقد إستفدت من حركة المدير الكبير لأنى عرضت حاجتى بسرعة

وأخذت الرفض بسرعة ، وإنصرفت مبكراً .

* * *

في مبنى الأمم المتحدة وجدتهم قد هيأوا الطرقات الواسعة في المبنى الفخم لتحتلها المكاتب . طبعاً أصابهم التوسع في الاختصاصات والمكاتب والبيروقراطية ، فلم يكن بد من هذا الإجراء ، ولكن هل تستطيع حقاً أن تميز إن هذه كانت في الأصل طرقات ؟ أظن أن هذا الجزء الأكبر الذى يستدعى الفخر في معالجتهم لهذه المشكلة .. ولكن هل تستطيع الأمم المتحدة أن تعوّد العالم على أن يحل مشاكله على هذا النحو .. ولكن من يقعد في الطرقات ؟ ومن يعلق الجرس في رقبة القط ! .

مع أننا في الولايات المتحدة إلا أننا لانستطيع أن نغفل الإشادة بنظام الإستعلامات في مبنى البنك الدولى في واشنطون أو في مبنى الأمم المتحدة في نيبورك فإنك لاتكاد تسأل عن اسم الموظف في هذا المبنى الواسع الأنيق أو ذاك دون أن تذكر إدارته ولا رتبته إلا وتجدهم قد أعطوك رقم تليفونه على الخط الداخلى في دقيقة واحدة تساعدهم على ذلك القوائم الأبجدية .. اذهب إلى أى مبنى من مبانينا واسأل عن الشخص الثالث تجد العنت فإذا سألت عن الشخص العاشر وجدت العدم .

لاتستطيع أن تغفل القدرات الهائلة التى تتمتع بها السكرتيرات الأمريكيات ومع هذا لاتستطيع أن تنكر أنهن يتمتعن بقدر أكبر من الغباء ! كيف ذلك ؟ إذا كانت الأمور تتعلق بالعمل الروتينى الذى هو في أيديهن كل يوم وليلة فإنهن سرعان ماينتهين منه في صورة مشرفة أمامك ، وفي رقة ، وفي إتقان ، وبتشطيب أمريكى على أعلى مستوى ، لاحظت ذلك كثيراً ، خاصة عندما تناولك الواحدة منهن بطاقة المؤتمر بعد تقديم اسمك بدقائق قليلة جداً ، فتجد بطاقة أشيك ماتكون ليس فيها حرف واحد خطأ .. وتجد القدرة الهائلة إذا قدر لك وسألت عن شيء من الذى تسأل عنه كل يوم ..ولكنك إذا كسرت القاعدة وسألت عن إسم المبنى الذى يواجه مبناهم مباشرة فسوف تذهل للغباء الرهيب .

* * *

من الأمور لا أقول العجيبة ولكن أقول التى لابد لنا فى مصر أن نحيط بها علماً أن المرأة الأمريكية قد تتزوج فى الرابعة عشرة من عمرها ! وقد وجدت أمثلة كثيرة لهذا ، وصحيح أن كثيراً من هذه الزيجات تنتهى بالطلاق ، ولكن الصحيح أيضاً أن قصص العشق المبكرة تنتهى بالفراق .

وكثير من السيدات هنا لايخفين أنهن أجرين العمليات الجراحية لمنع الإنجاب ، ويقولون لك ذلك فى تلقائية شديدة ، قد تدهشك أو تزعجك فى المرة الأولى ، ولكنك إذا ماإعتدت أن تستمع مثل هذا ، وبدأت تفكر فى أن تسأل عن هدفهم من وراء هذا ، وخططت أن تلقى سؤالك فجأة ودفعة واحدة لتستمع إلى السبب المباشر راعك أن تسمع منهن إيمانهن بأن الحرية خير وأولى .. عمليات ربط الأنابيب هنا منتشرة ومرغوبة .

* * *

ومن ألطف الأشياء هنا فى أمريكا تلك السيارة الكهربائية الصغيرة ، مكشوفة السقف مفتوحة الجوانب التى تستعملها جامعة جنوب كاليفورنيا فى داخل الجامعة ، فيما بين المبانى بعضها وبعض . لنقل الخطابات ، والرسائل ، والمواد المطبوعة ، وكثير من الاحتياجات من المخازن أو من مركز مبيعات الجامعة أو لنقل الحقائب أو الطعام أو الأفراد أنفسهم كما حدث معنا فى أول يوم حين أخذونا بها إلى مايسمى بقرية الجامعة University Village حيث الطعام والشراب (أكثر من عشرة مطاعم محلية) ومحلات الملابس والحلاقة ومراكز تصوير المستندات والآلة الكاتبة والطابعة وماسح الأحذية والمكتبات ومخازن الأدوات الكتابية .... إلخ .

أما الشيء الألطف من هذا فهو مبنى الأنشطة الطلابية .. ولاأريد أن أحدثك عن مبنى الأنشطة الطلابية واتساعه وقدرته على تسهيل كل الإمكانات لكل المواهب ، وقد كنا فى مصر نحاول أن نرسى هذا المعنى ، وكنا فى المدارس الثانوية النموذجية نجد شبه نواة لتخصيص أماكن للنشاط ، حتى إذا ذهبنا إلى الجامعة وجدنا ذلك ينقرض ثم إنه اليوم قد إنقرض فعلاً ، ويظن بعض المصريين أن مثل هذا التمركز بؤرة خطرة ... ولا أزعم أنى أستطيع أن أستعرض

مالا أحب أن أجده يمثل بيننا على أنه رأى مع إحترامى لكل الآراء .. ولكن الذى يمكننى مع كثير من التجاوز أن أجزم به أن الهواء النقى فى الحجرة المغلقة مع الوقت ليس بأفضل من الهواء الطلق فى الطريق العام . وأن الأفكار تفقد بعضاً من عنفها عندما تنتقل من القلب إلى العقل ، ثم تفقد جزءاً أكبر من هذا العنف إذا انتقلت إلى اللسان ، وتفقد جزءاً أكبر إذا إنتقلت إلى اليد التى تأخذ وقتاً أكبر فى التعبير من الذى يأخذه اللسان .. ثم إنها مع التفاعل مع الجماعة تكتسب بعض طاقة الاحتكاك وهى طاقة فى إتجاه آخر تقلل من العنف الذى يكون فى الأفكار .. وإذن فإتاحة الفرصة أمام كل الأنشطة الجامعية هو واجب الجامعة وهو واجب الدولة وهو واجب أصحاب الفكر فى كلا المؤسستين .

ولكن جامعة الأعداد الكبيرة فى مصر لاتزال تحتاج جهداً فى إرساء هذه المعنى وترسيخ جوانبه .

* * *

تسألنى عن الطوابير التى وجدتها فى جامعة جنوب كاليفورنيا ، طابور واحد ، كنت حريصاً أن أعرف علام يتكالب الأمريكيون ؟ ويقفون طابوراً فوجدت أن الطابور أمام إدارة الباركنج للسيارات الخاصة لدفع الإشتراك عن شهر مقدماً لمكان معين يضع فيه الطالب سيارته فلا يخطئه .

طابور آخر تجده فى كل مبنى من مبانى هذه الجامعة ، ولكنه ليس طابور أشخاص واقفين ، وإنما أسماء أناس (أغلبهم انتقل إلى رحمة الله) ومؤسسات كبرى هى أسماء الأفراد والمؤسسات التى بنت هذا المبنى ، التى دفعت تكاليف بناءه وأهدته للجامعة . هذا الطابور الطويل من مائة إسم ومن مائتين لايخلو منه صدر مبنى من مبانى الجامعة المنتشرة هنا وهناك ، وكثيراً مايتمنى كتابنا أن يجدوا مثل هذا فى بلدنا .. ولكن المشكلة أننا لازلنا إلى اليوم لانثق فى مقدرتنا على أن نكون هكذا .. ولوأن هذا الشعور قد اقترب من مرحلة الاختفاء .. إلا أن الجانب الآخر من المشكلة هو أن كثيرا من أصحاب المال فينا يفضلون أن ينفقوه فى الأفراح أو الليالى الملاح أو استهلاك طاقة بآلاف الواتات (من التى نعانى من أزمة فيها) فى إضاءة الشارع من أوله إلى آخره يوم طهور أصغر

الأنجال ، بينما الشارع يحتاج إلى تعبيد حتى لاتنزلق قدم أصغر الأبناء فيه ، فتنكسر ساقه ، ويبقى فى المستشفى ثلاثة أسابيع ، تزوره فيها وفود الأقارب والمقربين يحملون من الهدايا (الطعام والفواكه) مايكفى للإنفاق على سرير جديد يضاف إلى عدد أسرة المستشفى ، وفى نفس الوقت يخفف الطلب على الفاكهة فلا يكون فيها أزمة فى الإستهلاك المحلى أو فيكون فيها فائض نصدره فنجلب به من العملات الصعبة ماهو كفيل بسد بعض العجز فى ميزان المدفوعات . المسألة الآن فى أنماط الإستهلاك تحتاج إلى الزمن ، ولكن الوعى كفيل بإختصار الفترة من الزمن الكافية لإثارة الإحساس بخطور الموقف .

* * *

من النادر أن تجد فى أمريكا السيارات الفيات ، وطوال مدة إقامتى (عشرين يوماً) لم أعثر إلا على سيارتين ١٣١ ، واحدة فى أناهيم والأخرى فى فيلادلفيا .. هذا مع تركيزى الشديد أملاً فى العثور على أثر للعربات الفيات ومثيلاتها من العربات الشعبية أو الشرقية .. ولكن الملاحظ أن العربات الفولكس الخنفساء الصغيرة تلقى رواجاً شديداً هنا ، ومن الطبيعى جداً أن تجد هذه العربات الخنفساء على الطرق السريعة جداً تسابق العربات الأمريكية واليابانية التى تكون فى طولها أربعة أضعاف السيارة الفولكس .. وكثيراً ماتجد هذا النوع من العربات وقد أدخلوا عليه تعديلاً يرفع كل جسم السيارة فيما عدا الإطارات عن الأرض حوالى ٢٠ سنتيمتر ويصبح شكلها أمامك كما لوكانت مرفوعة على كريك بينما هى تسير بأقصى سرعتها على هذا النحو اللطيف .. أما التعديل الأكثر طرافة فهو الذى يتيح لغطاء الموتور أن يكون أقصر من طبيعته بحيث يصبح الموتور أكثر عرضة للجو من حوله ! .

أما السيارات التى تلقى رواجاً شديداً هنا فهى السيارات اليابانية ، طبعاً المصنوعة على طراز الرفاهية الأمريكية طولاً وعرضاً وتكييفاً وأتوماتيكية لكل شىء .. ثم السيارات الألمانية أيضاً على طراز الرفاهية الأمريكية التى تتيحه له المرسيدس المسحوبة المسطحة بدلا من المربعة وكذلك ال BMW ، وقد حدثتك عن الفولكس الصغيرة ولكن هناك موديلات وأنواعاً من الفولكس

الأمريكانى هنا لاتقل عن المارسيدس طولاً وعرضاً .. والأودى وما أدراك ما الأودى الخمسة آلاف (AUDI 5000) الجديدة وإعلاناتها التى لا أفتأ أراها طوال كل يوم على الطريق وعلى صفحات المجلات .

* * *

يهمنى بقدر كبير أن أحدثك عن السمنة فى أمريكا .. قد أقول لك أن إعلانات العقول الألكترونية والقضاء على السمنة هى أكثر مايطالعك من إعلانات فى كل المجلات والصحف الأمريكية التى أتيح لى أن أشغل وقتاً كثيراً من ليلى ونهارى بمطالعتها وتصفحها .. ولكن هذا ليس بيت القصيد ، إنما تستطيع أن تلحظ بعينك (وهذه عينة عشوائية) فى أى مدينة من المدن الأمريكية أن كثيراً من الناس يعانون (أو يتمتعون ب ..) السمنة ، والسمنة المفرطة فى نسبة كبيرة من هؤلاء .. وقد يكون السؤال وكيف كان ذلك كذلك ؟ ولكن السؤال الأكثر دقة أو ربما الجواب هو ولم لا يكون ذلك ؟ قوم يتمتعون بنسبة بروتين ودهون عالية جداً فى طعامهم ، وأغلبيتهم الساحقة قادرة على هذا الطعام ، وأباؤهم كانوا قادرين على ذلك ، والتمثيل الغذائى يمضى بخطوات حثيثة ، ثم هم يحبون الحلوى ويكثرون من النشويات ، والكيك بأنواعه والبسكويت بأصنافه على موائد الإفطار والغذاء والعشاء ووجبة نصف الليل ! إذن فلم لاتكون السمنة ؟ وعلى فرض أن بعضهم نظم طعامه أو امتنع عن كثير من الأصناف أو الوجبات ، فإن الأكثرية ليست كذلك ، ثم إن هؤلاء سيبقى لهم جسم معتدل أيضاً إن لم يكن يميل إلى الضخامة .

قد يبدو مثل هذا الكلام على عواهنه مستنكراً ومستغرباً من طبيب صغير من المفترض أنه يعرف الفرق بين الشحم واللحم ، ويعرف أن مثل هذا التضخم فى الجسم قد لايكون إلا دلالة مرض ، نعم .. ولكن الحقيقة أن سمنة الأمريكان فى أغلبها سمنة صحة ورفاهية ، وأن سعيهم للذهاب بها ليس ضجراً منها بقدر ماهو مراوحة بين الاستمتاع بالرشاقة والاستمتاع بالامتلاء وإلا لكانت انتهت منذ زمن .. إنها مشكلة من مشكلات الرفاهية الأمريكية !! .

دع عنك هذا وتأمل معى أجسام الزنوج فى لوس أنجلوس وحولها طول

فارع ، قامة مديدة ، عود مستقيم ، جسم ممتلىء ، عضلات بارزة ، وأوزان ذات أوزان ... ثم تأمل الزنوج فى مكان آخر من العالم طول فارع ولكن الجلد فوق العظام .. عظام عريضة ولكنها ناتئة ، عود مستقيم ولكنه يود لو مال إلى الأمام ، العظام هى البارزة لا العضلات .. وأوزان بلا أوزان إذن يحسن بك أن تنظر فى المسألة كلها من منظور اسمه " التغذية " .

* * *

أحدثك عن حادث الأتوبيس الذى كنا فيه فى لوس أنجلوس ، فوجىء السائق بعربة أمريكانى تعبر الشارع وهى تكسر الإشارة ، لم يكن بد من أن يصطدم بها ، فإصطدم فأصاب مقدمتها كلها بتلفيات شديدة ، ولم تحدث خسائر فى الأرواح ، ووازى السائق بسيارته الجانب الأيمن ووقف ، وخاف بعض الركاب من ضياع الوقت أو من الذهاب للبوليس فهرعوا إلى ترك الأتوبيس ، الأتوبيس بالطبع ليس فيه إلا سائقه الذى يقوم بعمل الكمسارى (والمفتش أيضاً) .. فى هدوء أعصاب وجدت السائق يخرج مجموعة من الكروت المطبوعة هذه الكروت فيها إقرار يوقعه كل راكب بأنه مستعد للشهادة فى حادث الأتوبيس ، ويوقع المواطن ويذكر اسمه وعنوانه ، هب أن الركاب ليس معهم أقلام ، طبعاً الشركة وضعت هذا فى حسابها ، ووجدت السائق بعد أن وزع الكروت ، يوزع أقلاماً من الرصاص ، قصيرة ، هل ينتجون هذه الأقلام القصيرة فى أمريكا ، تأملت فوجدت الحروف الأولى من إسم شركة الأتوبيس (RTD) على القلم ، إذن هى أقلام الشركة لمثل هذا الغرض .

إنتهى الرجل من جمع الأقلام والكروت ، وجاء البوليس ، فعاين الإصابات وعاد السائق وذهبنا لحالنا ، كنت قد طلبت إليه أن يخبرنى عندما يأتى إلى المحطة التى سأغير فيها الأتوبيس وآخذ آخر ، فوعدنى ، وأكد أنه لن ينسى ، وكنت زيادة فى الاحتياط أجلس وراءه مباشرة ، ثم جاءنى إحساس أنه ربما بعد هذا الحادث قد ينسى فذكرته ، فابتسم ، ومرت المحطات ثم جاءنى الإحساس فقلت له ياسيدى أرجو ألا تنسى ، فقال لقد نسيت بالفعل ، إنها المحطة التى مضت ، واعتذر ، ونزلت وكانت على رأس طريق سريع يموج

بالحركة السريعة من السيارات (الطائرة) ولكنه يخلو من حركة المشاه إلا من هؤلاء الزنوج الذين أوقفوا سيارتهم وخرج منها بعضهم ، وبقى البعض الآخر فيها ، اعترانى شعور بالخوف ، رغم أننا كنا لانزال عل أول الليل ، والشمس قد أخذت طريقها للغروب منذ دقائق فقط ، ماإن جاء الأتوبيس التالى حتى ركبته من دون أن أسأل وأنا أعرف أنه ليس أتوبيسى ولكن لأنتقل من هذه المحطة الموحشة !! .

فى الغالب سوف تكون المحطة التالية من مسار أتوبيسى أيضاً لأنه مادام يقف هنا وليس هناك مفارق حتى المحطة التالية فلابد أنه سيقف هناك .. وسألت الرجل هل هذا الأتوبيس إلى هيلتون الجامعة .. قال لا ، قلت وماذا آخذ قال رقم كذا قلت هل أستطيع أن آخذه من المحطة التالية قال بكل تأكيد .. ياما أنت كريم يارب .

وصلت ، هيلتون الجامعة عن بعد ، والجامعة عن بعد أيضاً .. سكون فى سكون ، ظلام فى ظلام ، ليس هناك أحد يطبخ الآن فى مطابخ سكن الجامعة حتى تسمع أصوات أدوات الطعام أو كراسى المائدة وليس هناك حتى من يحيك الثياب فتسمع رنة الإبرة ، الصمت المطبق إلا من هدير أصوات العربات لا بل من أصوات احتكاك العربات بالهواء .

* * *

وجهت إلينا الدعوة فى ندوة الشيخوخة والتقدم التكنولوجى لزيارة مصنع هيوج للطائرات العملاقة وتقع فى السيكوندو بالقرب من لوس أنجلوس ، وذهبنا فوجدنا فى استقبالنا بطاقة أمن معدة خصيصاً بإسم كل منا ، حتى الأثنين اللذين أبلغا عن عزمهما على الإرتباط بالرحلة متأخراً (وكنت أحدهما) كان هناك لهما بطاقتان خاليتان ، وطُلبا ليملئا إستمارة كانت قد أعدت لهذا الغرض . وكان الباقون قد اتموا ذلك بالأمس .

رافقنا رجل الأمن ، وكان لايفتأ يعدنا ، وفى أول مرة وجدناه يقول العدد ناقص واحد ، وكان هذا الواحد عالماً من أمريكا الجنوبية سوف يحضر بالتاكسى بعد أن يقضى مشواراً فى وسط البلد .. تأمل أخذهم الأمور مأخذ

الجد .. لو كان هذا فى الدول النامية لسعد بالنقصان وقال انه لايمثل مشكلة ، إنما المشكلة فى أن يزداد العدد مع أن النقصان فى واقع الأمر أخطر ! .

لم يتح لنا أن نشاهد شيئاً حقيقياً فى مصانع الطائرات العملاقة ، إنما هم يأخذوننا من وراء الحجرات الزجاجية ومن أمامها يشيرون إلى الكمبيوترات التى تتولى تنظيم العمل فى تحكم ذاتى ، ووراء الكمبيوترات كمبيوترات ، وهكذا سلسلة من التحكم الآلى عن بعد ، وأنت تسير وراء المرشدين (قسمونا ثلاث مجموعات) هذا الكمبيوتر هو الذى ، وهذا هو الذى ، ولا فرق ظاهر أمام عينيك لأن كلها آلات حاسبة أو متحكمة من وراء زجاج كلها نفس الشكل الخارجى وإن إختلفت برامجها وشاشاتها وما على شاشاتها .. فإذا سئمت من هذه السلسلة فلا مفر لك لأنه لاتستطيع أن تغادر قصر التيه منفردا ، ولا مستقلاً ، منفرداً فتدخل فى مشكلات الأمن ! ومستقلاً فتتوه ! الصبر حتى كان الفرج .

* * *

فى أثناء مؤتمر الجمعية السيكولوجية الأمريكية ، وأنا أتأهب للذهاب من ماريوت إلى الهيلتون ، فوجئت بسيدة — لم تكن تحمل بادج المؤتمر — تسألنى — على اعتبار أنى أحمل حقيبة المؤتمر فأفهم فيه عنها — عن قاعة ما فى الهيلتون ، وأين الهيلتون ، قلت لها إنى أعرف الهيلتون ولكنى لاأعرف بالضبط هذه القاعة وأردفت أسأل عما يهمها فى هذه القاعة فأخبرتنى أن هناك الأستاذ (س) وأنه سيلقى محاضرة عامة فى الساعة السادسة أى بعد دقائق .. وأنها مهتمة بحضور هذه المحاضرة ، وأثنت على الأستاذ ثناءاً عطراً ، لم يكن قد عاد أمامى فى هذا اليوم إلا بعض النذر اليسير من العمل ، ثم تناول وجبة اليوم ، فلما انتهيت من ذلك الذى كان ورائى فى الهيلتون ، انصرفت إلى القاعة وكانت المحاضرة قد بدأت منذ نصف ساعة على الأقل فوجدت كل من فيها وقوفاً وقد أمسكوا جميعاً كل فى يده أو بكلتا يديه ورقة صفراء ، واستعدوا لترداد مافيها وراء الأستاذ ، كان كل مافى الورقة ، هو الالحاد ، فهم — هكذا تقول الورقة — لا يؤمنون بإله ولا بآلهة ولا بنبى ولا أنبياء ، إنما هو ما أصابهم

بخير فهو حسن يؤمنون به ، وما أصابهم بأذى فهو شر ويكفرون به ... ثم تكرار لهذا المعنى فى عبارات مختلفة ، كان الجمع يفوق المائة والخمسين ، وقد أخذوا يرددون مايعتقدون من وراء زعيمهم ، فلما انتهوا أخذ يؤكد المعانى وهم سعداء ، كنت فى آخر الصفوف فانصرفت إلى المقدمة لألمح الرجل عن قرب .. كانت سعادته بأتباعه لاتخفى البلاهة الظاهرة على وجهه ، بلاهة الكفر إن جاز هذا التعبير ، وأقسم بالله العظيم أنه تعبير علمى لا عاطفى .

وفى أثناء عودتى من مشاهدة وجه الرجل ، قابلت السيدة فسألتها إن كانت تعتقد فيما قاله الأستاذ ، فأكدت لى أنها تؤمن به تمام الإيمان وكانت تبدأ تشرح لى المذهب تظن فى نفسها القدرة على الإقناع .. بينما أنا على يقين أنها أولى أن تكون نزيلة مصحة عقلية ، بدلا من أن تتولى إدارة قسم الصحة العقلية فى هذه المدينة الأمريكية الكبيرة المحترمة !! .

* * *

هل تستطيع أن تجد تفسيراً لظاهرة كثرة الشحاذين فى مدينة نيبورك ؟ هل لأنها مدينة كبيرة وهذه عادة المدن الكبيرة ؟ هل لأنها مقر الأمم المتحدة وفى الأمم المتحدة كثير من الشحاذين فلابد من تمثيلهم أيضاً فى طرقات المدينة ، وهذه للأسف وجهة نظر أمريكية ، أم لأن فيها كثيراً من العابرين كل يوم ، فهى فرصة للشحاذين ، كل هذا محتمل وجائز .. ولكن السؤال الحقيقى ماهو موقف البلدية ؟ والمجلس المحلى من هؤلاء القوم ، هل يعتبرون ذلك سبة فى وجه نيبورك ؟ أو يعتبرونه بعض الديكور فى مدينة الغرباء ؟ إن الإجابة على هذا السؤال سوف تقودنا بالطبع إلى وجهة نظر فى هذه الحضارة الحاضرة .

بنفس القدر يحتاج المرء أن يجد إجابة واضحة تفسر له ظاهرة انتشار بائعى الفاكهة على كل نواصى شوارع واشنطون ، لاشك فى نظافتهم ونظافة الفاكهة التى يبيعونها وتوافر مقاييس الصحة العامة فيها ، ولكن من يضمن هذا إلى الأبد ؟ ولماذا هذا المنظر ؟ وصحيح أن النواصى الواسعة تتسع لهم ، وأنهم أفادونى إلى حد كبير فى الوقت بدلاً من أضيّعه فى داخل السوبر ماركت — هذا على الرغم من ارتفاع أسعارهم بالمقارنة بأسعار السوبر ماركت الذى هو

مرتفع بالنسبة للمدن الأخرى .. كل هذا صحيح ولكن ماهو الموقف الرسمى من هذه المسألة وماهو موقف البرلمان المحلى ؟ .

* * *

كل شيء هنا يجب أن يظهر أنه يخضع للقانون ، وهم فى ذلك صادقون ، ولكن البروباجندة من طبعهم ، فى كل أتوبيس خط أبيض (أو أصفر) وراء السائق مباشرة على الأرض ، وفى مقدمة الأتوبيس لوحة كبيرة أن '' القانون الفيدرالى يحرم (يمنع) تحرك الأتوبيس إذا كان أحد الركاب واقفاً أمام هذا الخط .. هذا حرصاً على سلامة الركاب '' .. وحتى الكراسة التى أكتب فيها كتب عليها أنها من الحجم القانونى وهو ٢٨,٩ سم × ٢١,٦ سم ومكتوب بالبوصات والسنتيمترات ! .

* * *

قبل أن أغادر فيلادلفيا ، وبينما أنا فى طريقى إلى بوابات الطائرات حاصرنى إثنان من متطوعى الأعمال الخيرية(إن صح هذا التعبير فى كل كلمة من مفرداته الثلاث) ، واحد بعد الآخر ، أما الأول ففتاة ضد الحرب النووية وضد الأسلحة النووية ، ولا تفتأ تشرح لى دور أمريكا ودور ليبيا (لأنى مصرى تظن أنها تدق على الأوتار الحساسة) ودور الطب ودور البيئة وأصدقاء البيئة .. أهلاً وسهلاً ! .

أما الثانى فينتمى إلى إحدى الجمعيات الدينية نشأت فى الهند ، وتنشر نشاطها فى أمريكا ، ومعه من المراجع ثمانية مجلدات كبيرة ، أهدانى الأول ، وأخذ يبشر بدعوته ، وصاحبه ضجر منه ، يريد أن يقول له أنه لا فائدة مع هذا لأنه مصرى مسلم ! وعلى الرغم من ذكاءه فى اكتشاف هذه الحقيقة إلا أنه لم يكن بالقدر من الذكاء الذى يجعلنى لا أحس أنه إكتشفها .. قبلت الكتاب وتركت لهم عنوانى وبضع بنسات قليلة حرصاً على ساعات طويلة قد يضطرنى إليها بكثرة كلامه ! .

* * *

لاتستطيع أن تنكر حب الأمريكان للدولار ، هل تعرف شيئاً عن الحديث

الشريف تعس عبد الدينار تعس وإنتكس ... الحديث .. هم هكذا ، وليس هذا هجوماًعلى الحضارة التى لابد أن نكن لها كل احترام وتقدير ، ولكنه تسجيل لجانب منها يعتز به أصحابه ، أكثر مما يهاجمه الغرباء ، وقد يكون هذا الجانب من أهم الجوانب التى قامت عليها الحضارة ، وهى حضارة رأسمالية .. ولكن الشرقى مع ذلك لايستطيع أن يبلع بعض المواقف .. فى مكان انتظار الأتوبيس الذى يذهب المطار فى إحدى المدن وكانت تذكرته دولاران ونصف ، على حين أن التاكسى يكلف عشرة دولارات ، وكانت هناك وفرة فى التاكسيات .. فأخذت نظرية العرض والطلب طريقها وعرض سائق التاكسى على سيدة واقفة أن تدفع خمسة دولارات فقط فى مقابل أن يأخذها هى وراكب آخر بخمسة دولارات هو الآخر ولكن السيدة رفضت مع أن الدولارين ونصف لا يمثلان شيئاً ذات قيمة فى الحياة الأمريكية ، ولكن قيمتهما فى الحضارة الأمريكية كبيرة جدا .

وحدث ذات مرة أن نزلت إحدى السيدات من التاكسى الذى أقلها إلى باب محطة القطار مسرعة ، يبدو أنه لم يكن على موعد قطارها غير ثوان ، هكذا كانت سرعتها ، فسقطت منها بعض النقود المعدنية وهى مسرعة فلم تلتفت إليها .. وكان أكبر هذه العملات بالطبع ربع دولار ! ومع هذا سارع ثلاثة أو إثنان من الركاب ومثلهما من الحمالين يلتقطون هذه العملات من على الأرض ، بشعور الذى وقع فى يده على كنز .. تتأمل ولم لايكون كنزاً أليس شيئاً جاء بلا تعب وبلا مجهود .. وبلا حرمة أو مخالفة للقانون فى نفس الوقت !! .

* * *

والمهاجرون – المصريون أو غير المصريين يعيشون نفس الأجواء التى يعيشها الأمريكيون بالنسبة لتقدير قيمة الولايات المختلفة من حيث الغنى والفقر ، فولايات الشرق فقيرة بالنسبة إلى ولايات الغرب ، والأفقر ولايات الجنوب ، ولهذا فإن السعيد هو من تقوده خطواته إلى كاليفورنيا مثلاً على حين أن الذين يبدأون بكارولينا أو جورجيا يظلون يتطلعون إلى الهجرة إلى الغرب ، وقد تتصور أن مثل هذه الهجرة بالأمر السهل اليسير ، وهم فى بلد واحد ، ولكنك قد تعجب

عندما تعلم أن هذه تحتاج خطوات كبرى ، فالمسافة نفسها تحتاج ثلاثة أيام على الأقل بالقطار وأربعة ساعات على الأقل فى الطائرة ، تصور ! وليس هذا بغريب فالمسافة بين الغنى والفقر بلاشك طويلة !! .

على أن الذين بدأوا بولاية فقيرة لايندمون ، فلابد لك من وقت تقضيه مع المجتمع الأمريكى تأخذ فيه الخبرة به ، والخبرة التى تنفق عليها فى بلد فقير أرخص من تلك التى تنفق عليها فى بلد غنى .

* * *

مما يؤرق المهاجرين المصريين (بعبارة أدق المهاجرات المسيحيات منهن) مسألة الأحوال الشخصية ، فالزوج فى إستطاعته أن ينفصل وأن يتزوج بأخرى أو تكون له علاقة الزوجية بصورة أو بأخرى مع أخرى أو أخريات ، ولكن تبقى الزوجة بحكم المذهب المسيحى فى مصر على ذمة زوجها ، ولايصح لها إذا أرادت ألا تحل عليها اللعنة أن تخرج عن هذا الإطار .. وحدث أن ترك أحد هؤلاء زوجته ، وارتبط بصينية ، وترك أولاده ، وعاد الابن الأكبر إلى مصر ، وكان طالب طب فى الولايات المتحدة ، وهو وضع إجتماعى وعلمى ممتاز بل مرموق ، عاد الأبن فى أجازة ، ثم رجع فوجد أحوال أمه تسير من سىء إلى أسوأ ، واضطربت نفسيته ، وقاده ذلك إلى الإنتحار ، ودخلت أمه بعدها مستشفى الأمراض العقلية فى إحدىَ كبريات المدن الأمريكية .. وغير ذلك كثير .

* * *

على باب مطار فيلادفيا وجدت بعض العمال بزى شركة الطيران ومعهم بعض الحاملات ، ظننتهم يساعدون فى نقل الحقائب إلى الداخل حيث الفحص ولكنى بعد تأمل وجدت طرف سير كهربائى من الذى تُحمل عليه الحقائب ، ووجدتهم يضعون عليه حقائب أحد المسافرين ، سألتهم هل من الممكن أن أسلم حقائبى من هنا ، قالوا نعم ، وكانتا حقيبتين ستنتقل بين طائرات ثلاث إلى نيبورك ثم إلى مدريد ثم إلى روما ، وعند الرجل بطاقات ذات ثلاث رحلات لمثل هذا النوع من السفر ، أحضرها وكتب عليها أرقام الرحلات الثلاث ،

وأعطانى صورة ، دبسها فى تذكرتى ، وذهبت الحقيبة ! ودخلت المطار وأنا أكثر ماأكون تقديرا لهذه العقلية العملية الذكية التى توفر وقت الناس ووقت موظفى الشركة والتى تعالج المشكلات من أول خطوة ، لاتنتظر عند موظف الحجز وأمام الكمبيوتر وعند تحديد المقعد ... إلخ ، وفى نفس الوقت تكسب الوقت لعملية تخزين هذه الحقائب فى جسم الطائرة ، وهى العملية التى تحتاج إلى تبكير ، ويكون التبكير فيها مفيداً إلى حد كبير .

وعند موظف الحجز على الكمبيوتر وجدت بعض الناس لايزالون يحملون حقائبهم يسلمونها عنده ، فعجبت ، وحدثته عن طريقتهم وجمالها ، فشكر لى شعورى ، وسألته عن هؤلاء ففهمت أنهم العقلية القديمة .. ولكن شركة الطيران العالمية لاتزال أيضاً تقبل الحقائب هنا .. وهذه هى عظمة النظم الجميلة المستحدثة .:. لايجبر أصحابها الناس على إتباعها بالشدة ولا حتى بالتعليمات البسيطة ،وإنما يتركون الناس يتصرفون من أنفسهم إلى كل مستحدث لخدمتهم وتوفير وقتهم ، حتى إذا صار كل الناس إلى النظام الجديد تحللوا من القديم .

* * *

على أن الملاحظة التى يجدر أن نسجلها أن الأمريكان يحملون كثيراً فى إيديهم فى الرحلات الداخلية (وحتى المشايات) ، وشركات الطيران لاتعارضهم فى هذا ، لأن الفراغ متاح ، والحقائبُ نفسها معدة فى حجم الفراغات ، والرحلات القصيرة والمطارات بعيدة عن المدن ، ومن غير المعقول أن تطالب هؤلاء الركاب الأفاضل بأن يضيعوا وقتاً آخر فى إنتظار الحقائب وتسلمها (مع أنه لا يأخذ وقتاً على الإطلاق) .: ومما حرصت عليه شركات الطائرات فى داخل أمريكا أن تخصص مكاناً كدولاب بإرتفاع الطائرة كلها يعلق فيه الركاب تلك الحقائب ذات الشماعة التى تحافظ على معاطفهم وحلاتهم كما خرجت من تحت المكواة ، كما يمكن بالطبع لك أن تعلق فيه حلتك على شماعة أنيقة .

* * *

كثيراً مانسمع عن الإنجليزى الأمريكانى ، يتعلل به البعض فى النطق من

أنه ينطق إو يكتب على النحو الأمريكاني لا النمط الأنجليزى ، ولكن الحال حقيقة فى الولايات المتحدة أن هناك كثير من المفردات اللغوية تختلف بين الأنجليز والأمريكان .. والأمثلة على هذا كثيرة جداً .. من هذه الاختلافات مانتبع فيه نحن المصريين الأمريكان كالبالكون (وهو عند الأنجليز جاليرى) والحمام Bathroom وهوعند الأنجليز Lavatory وعلى حين يطلق الأنجليز على شقة السكن كلمة Flat فإن الأمريكان يفضلون Apatrment ويستخدم الأنجليز كلمة Cookies بدلاً من Biscuites التى يستعملها الأنجليز ونجاريهم فيها .

ومن الألفاظ المستخدمة عند الأمريكان قولهم على دورات المياة Restrooms وهو تقريباً نفس اللفظ العربى القديم بيت الراحة .. وعلى المحلات العامة Drug stors التى قد توحى بأنها مخازن أدوية ... ويفضل الأمريكان إستعمال كلمة Elevator للدلالة على المصعد ، وهو فى الإنجليزية Lift ... ومن العبارات الشائعة فى المجتمع الأمريكى مايقال فى إستعمال التليفون لبلاد بعيدة أنه Long distance أما الأنجليز فيستعملون نفس الكلمة التى لانزال نستعملها حين نقول (ترنك) .... أما البريد فهو Mail بديلاً عن Post وللدلالة على حقيبة اليد (الهاندباج) Hand-bag يستعمل الأمريكان كلمة Purse .. وحين يتحدث الأمريكان عن عربات الترام فإنهم يقولون أنها عربات الشارع Street cars وعن مترو الأنفاق إنه Subway فى حين يسميه الأنجليز Under ground ويسميه الفرنساويون وبعض الإنجليز أيضاً بالأنبوبة Tube .

* * *

تجوانا - المكسيك

تسألنى عن هذه الميكروفونات تحملها السيارات تجرى بسرعة وببطء فى شوارع نجوانا تنادى فى شيء من الحماس .. قد تكون انتخابات محلية .. قد تكون إعلاناً عن أوكازيون هنا .. لا أدرى وقد فشلت فى العثور على إجابة من هؤلاء القوم الذين لايتكلمون الإنجليزية على الإطلاق ، إنما هى الأسبانية وكفى ! .

مسكينة تلك الدولة التى تقع فيما وقعت فيه المكسيك من أزمة إقتصادية

تودى بقيمة عملتها فى مقابل الدولار ، البتسا المكسيكية لاتساوى شيئاً فى مقابل الدولار الذى بوسعك أن تشترى به ١٢٠ بيتسا أو ١٣٠ أو ١٤٠ ، وقد حدث منذ عام أن انخفضت فيه قيمة البيتسا إلى النصف مرة واحدة !! والمأساة الحقيقية أن كل المحلات تتعامل بالعملتين البيتسا والدولار ! ويستطيع كيس النقود (الخزينة التى أمام البائع العادى) أن يتقبل العملتين فى سهولة ويسر ، ولكن الجانب الكوميدى فى الموضوع أن كل محل له تسعيرة مختلفة للدولار عن جاره ، وهذه هى نهاية العملة الوطنية التى لا يعمل أهلها على حمايتها .

الفاكهة هنا رخيصة جداً ، ولك أن تفهم ذلك من أسعار الفاكهة التى اشتريتها إذا وضعت فى حسبانك أن هذه أسعار تجار تجزئة عابرين لسائح عابر .. حبة المانجو بنصف دولار ، ونصف كيلو من أجود أنواع الخوخ ثلث دولار (فى أمريكا ٨٩ سنتاً فى نفس اليوم) .

مطار مدريد — أسبانيا

مطار مدريد نظيف جداً ، وينظف كل وقت أمام عينيك بصفة دورية وفى هدوء شديد ، ولكنك مع ذلك لاتستطيع أن تغض الطرف عن إمكاناتهم التى كانت إلى فترة قريبة متواضعة فيما يبدو ، فى كل دورة مياه سخان كهربائى لتسخين الماء على النحو الذى فى بيوتنا ، يبدو أن هذه السخانات ركبت فى وقت لاحق كتعديل للمبنى الذى لم يكن فيه من الأصل نظام مركزى لتسخين المياه ! ورق التواليت من نوع متواضع جداً ورخيص جداً قد يكون أرخص من الورق الهندى ! أرضية المطار تلمع من فرط النظافة بل من فرط التنظيف ، الإحساس بالقومية ينعكس على اللغة وإعطائها مكانها بقدر كبير ، كافتريا المطار غالية الثمن ، وتضطر للدفع على الباب ، فى السوق الحرة أنواع كثيرة من السجائر العالمية ولكنها أغلى من أى سوق حرة أخرى ، وفيها سجائر أسبانية رخيصة ، وأنواع كثيرة من الخمور الأسبانية معتدلة الأسعار ، استبدلت قليلاً من الدولارات فى بنك عليه طابور ، فوجدت من ضمن ماأعطانى الكاشير ربع ريال سعودى ، فلما استفسرت منه عن السر ضحك على نفسه وعلى ما انتابه من توهان ضحكاً طويلاً ، البوليس الأسبانى يمر أمامك من وقت لآخر فتجد

لآخر فتجد فيه معظم سمات البوليس المصرى .

التحويل من رحلة إلى أخرى يتم من خلال مكتب مركزى للترانزيت تديره إيبريا (لصالح نفسها بالطبع) ، عندما دخلن الطائرة وجدتهم يقسموننا حسب ألوان الكروت التى معنا فالأول أصحاب الكروت البرتقالى والبنى يليهم أصحاب الزرقاء والخضراء ، والناس فى عجب من ذلك ، ولكن رجال الطائرة لايعجبون إنما هم واثقون من عدالتهم وقدراتهم على تمييز الناس من أصحاب المقاعد !!

دخلنا الطائرة فسمعنا صوت الموتور دائراً ، ولمسنا بأرجلنا اهتزاز جسم الطائرة نتيجة حركة المرور .. هل كان يسخن الطائرة ! الله أعلم ، ثم كانت الطلعة .. أول علاقة بطيار إيطالى ولكنى مع هذا كنت قد نسيت هذا إلا إنى عندما وجدت الدوشة والزيطة والحركات الكثيرة تأملت فسرعان ماتذكرت أن هذه أول رحلة لى على شركة إيطاليا ومع الطليان ... وبدأت الدوشة الطليانية .

الباب الثالث : **إيطاليــا**

تسألنى عن سر النظرة الى الطليان على أنهم قاع السلسلة الأوربية ، اسأل الطليان أنفسهم .

لن تستطيع أن توجه السؤال بطريقة مباشرة بالطبع ، ومع هذا لن تعدم الطريقة الدبلوماسة التى تستطيع أن توجه بها مثل هذا السؤال ، ولو عرف الإيطالى المسئول أنك مصرى فسوف يستغل نقطة التماثل بين مصر وايطاليا فى قدم الحضارة وعراقتها ، وأن لهما تاريخ قبل التاريخ ، وممالك قبل الدول ، وحكومات سيطرت على أجزاء هامة من العالم ، وآثاراً باقية لهذه الحضارات ، ومع هذا فإن حالهم اليوم ليس على القدر الذى ينبغى أن يكون بالموازاة لهذه الحضارات .. إذا كان المسئول على قدر من الذكاء الطليانى الذى يتيح له أن يستغل مثل هذه النقطة فسوف يركز عليها بالطبع ، وسوف يخرج مها الى أن العظمة موجودة ولكن الظروف ..! أى ظروف لا تعرف ،ولكن أحدا لا يعدم الأعذار ..!

* * *

على أن موقف الناس من هذه النقطة بالذات يختلف اختلافاً كثيراً ، واكثر الناس الذين يعتدون بعقولهم يؤمنون أن هذا هو أصدق تعبير عن العذر يكون أقبح من الذنب ، ومثل هؤلاء فى رأيهم ليسوا إلا كالرماد خلفته النار ، أو كالشقى يخرج من ظهر العالم الصالح ، أو كالخفين جاء بهما حنين ، أو كالفأر تمخض الجمل أو أنثاه فولده بعد عناء !! ولا أظن أنك تستطيع أن تغض الطرف عن مقومات هذا الرأى من الصواب حتى وإن لم تجد فى قرارة نفسك القابلية للاقتناع به كلية .

هذا عن أكثر الناس الذين يعتدون بعقولهم ، ولكن هناك طائفة من أولئك الذين يعتدون بعقولهم ، اعتداداً لا يقل عن اعتداد إخوانهم السابقين ولكنهم يحبون من آن لآخر أن يفكروا بهذه العقول على طريقة الواقع ، لا على طريقة المنطق ، وكثيراً ما يكون فى الواقع منطق مقلوب ، وهو مع هذا مقبول لأنه واقع .. ومن هؤلاء الواقعيين من لا يجد حرجاً فى أن يخلط جد الأمور ببعض الهزل فى بعض الأحيان ، وخير مثل عندى لهؤلاء زميل عزيز ، زاملته فى الدراسة

الثانوية وفى قصر العينى وكنت آخذ بكثير من آرائه فى كثير من المواضيع التى لم يكن يأخذ فيها بالمنطق ، كان صاحبنا إذا أراد أن يشترى كتاباً من كتب الطب الخاصة بالأعوام الماضية سأل عن التقدير الذى حازه صاحب هذا الكتاب من قبل فان كان تقدير صاحبه عالياً ، ترك الكتاب وشأنه ، وانصرف الى شراء كتاب آخر لا يختلف عن الأول فى شىء الا أن يكون تقدير صاحبه مقبول ، أو جيد فحسب ، كان صاحبى يؤمن (ولا تدرى كيف) أن الكتاب قد استنفد غرضه مع الأول الذى حاز به التقدير العالى ، اما كتاب الثانى فلا يزال فيه أمل أن يحوز به صاحبنا التقدير العالى لأن سلفه لم يحظ بهذا التقدير .. ومع هذا فإن صاحبى كان دائماً يحوز التقدير العالى رغم هذا التفكير الذى لا يظن الكثيرون أنه يرقى به إلى النجاح .

* * *

وإذن فنحن فى أمر الطليان أمام نظرية ثانية ، قد نسميها نظرية الاستنفار بمعنى أن لكل شعب عصره ، فإذا أخذ عصره ، ولت أيامه وعاش بعد ذلك على هذا الماضى ، على سمعته ، أو على المال الذى يرثه عنه ، أو على (الأصول الثابتة) التى تبقى بعده ، أو حتى على آثار هذا الماضى ، بقايا حضارات ، أو شواهد قبور ، وقد يسمى هذا فى عرف البعض بالآثار ويسمى الدخل الناشىء عنه بالسياحة ، ولكن الذى لاشك فيه أن هذا الشعب يعيش على ماضيه ، ومن هذا النوع بين شعوب الأرض اليوم نسبة لايستهان بها .. قد لاتعيش هذه الشعوب على ماضيها فحسب ولكنها تضع فى حاضرها ماتستثمر به ماضيها ، نعم ، هناك طائفة من الشعوب على هذا النحو ، وجهدها فى هذا مشكور ، وقد لاتعيش هذه الشعوب على ماضيها ولاعلى حاضرها الذى تستثمر به ماضيها فحسب ، ولكنها تضع إلى جوار ذلك حاضراً إن لم يكن من أزهى الحواضر فهو حاضر مشرف على كل حال يشارك فى صنع مستقبل قد يكون أكثر إشراقاً ، وجهد هذه الشعوب مشكور بأكثر من الشكر الذى تحظى به الطائفة السابقة ، أما الطائفة الثالثة فشعب نعرفه جيداً لايهتم بأن يستثمر كل ماضيه الكبير ولا نصفه ولاربعه ، وقد يكون لنا فى شأنه حديث آخر .

على كل فإن الإيطاليين والحق يقال يبذلون جهدهم فى هذا الشأن ويبلغون بها شأواً بعيداً يستحق من الثناء قدراً لايستهان به ، ولكن جهدهم فى صنع مستقبلهم وتقدير ماضيهم وحياة حاضرهم لايزال يحتاج منا إلى شىء من التفسير كيف أنه لم يبلغ الماضى ، وقد عرضنا فى السطور الماضية لوجهتى نظر فى هذه القضية ، وبقى أن نعرض لوجهة نظر ثالثة .

* * *

نحن الآن فى مطار روما الدولى ، أو بعبارة أدق فى الطائرة التى هبطت مطار روما الدولى ، وقد أتيح لى أن أرى عجباً من أم هؤلاء الطليان منذ هذه اللحظة ، اللحظة الأولى وعلى غير مايتوقعه المرء فى مطار روما الدولى ، الذى هو بمثابة مركز الإلتقاء العالمى ، مصداقاً لقولهم '' كل الطرق تؤدى إلى روما '' ، على غير ماتتوقع فى هذا المطار فهو متخلف تكنولوجياً إلى حد بعيد ، ليس فيه (أنابيب) من تلك التى ينتقل فيها المرء من الطائرة إلى صالات المطار ، وهو ماوجدته فى بومباى منذ أكثر من عامين ، وإنما عليك أن تنزل السلم وتركب الأتوبيس .. إلخ لاعليك ، وإنما التخلف الحقيقى الذى أعنيه هو أن يأخذ العامل الفنى للمطار فى تركيب السلم إلى باب الطائرة عشر دقائق من المحاولات بعبارة أدق من (الدلع) الذى لامعنى له ولامبرر ولاطائل من وراءه .

هانحن ننزل السلم ونركب الأتوبيس وينتظر الأتوبيسان حتى يمتلأ كلاهما بكل الركاب ليتحركا فى وقت واحد كى يكون هناك ازدحام عند شبابيك الجوازات .. هذا هو الفرق بين النظام المرن وبين التحكم تحت إسم النظام وسنرى أن كل أمور الطليان تسير على هذا النحو من التحكم تحت إسم النظام وتكون النتيجة بالطبع والبداهة عكس الشعار المرفوع .

من أعجب ما رأيت أنهم هنا يراجعون التأشيرة التى تحملها على سجلات متهرئة تبعا لبلدك الأصلى يفتحون سجل مصر سجل قنصلية القاهرة ويحثون فى عرف G فيجدون اسمى وامامه التاريخ ، إذن فالتأشيرة سليمة .. ومع هذا لا يحدث العنف إلا من مطار روما !!

الحق يقال أن موظف الجوازات كان سريعاً ، ولم يكن هناك طابور للطليان وآخر للأجانب ، إنما يمر الكل من أمامه فيستعرض جوازتهم فى سرعة بالغة تدل على أن روح الحضارة موجودة ولكن !! .

* * *

فإذا إنتقلت إلى حيث تتسلم حقائبك راعك أن تجد المطار حاليا من الحاملات التى تحمل عليها الحقائب ، ثم إذ بك فجأة تجد الارض قد إنشقت عن ثلاثين حاملة انصرف إليها ثلاثمائة راكب فظفر من ظفر وبقى الآخرون .

* * *

لم يكن لسوء حظى معى شىء من الليرات التى تستلزمها مصروفاتى وكان على أن أنصرف إلى تحويل مبلغ من المال حتى أدفع للتاكسى أو الأتوبيس الذى ينقلنى إلى وسط البلد ، ووجدت عند البنك حوالى عشرة طوابير فى كل حوالى خمسون وفى معظم هذه الطوابير أناس كانوا معى على الطائرة الأسبانية التى جئت بها من مدريد وتأملت الشبابيك التى عليها الناس فوجدت اللافتات مختلفة ، ثم وجدت شباكا خالياً من الناس ووراءه موظف ، وعليه لافتة تعلن أنه مخصص لتبديل العملات الأجنبيهة فسعدت أيما سعادة ، وتوجهت إليه ، وسرعان ماذهبت السعادة أدراج الرياح ، فقد قال لى الموظف وهو يحرك يديه فى سخرية : أمامك كل هؤلاء الناس وتتركهم يقفون كما ترى وتأتى إلىَّ هنا مباشرة ؟ ، ولاحظت أن كل الناس يستهجنون طريقته فى الحديث معى فشجعنى هذا على أن أقول له بصوت مسموع بعدما فهمت أنهم كلهم يبغون ماأبغى : إن شباكه هو الوحيد الذى عليه لافتة تفيد أنه مخصص لتحويل العملة ، وقد عملت بما فهمت ، أما كونهم يخصصون الشبابيك لغير ماخصصت له ، فهو إهمالهم !! ، وأما الطوابير فهى دلالة على فشل البنك !! ، وأما كونه يقف بلا عمل إلا السخرية من الناس المحترمين فمنتهى العبث !! ، كل هذا فى إنجليزية متواضعة فيها على الأقل وعلى الأكثر البساطة والقدرة على الإفهام ، ولم يكن أمام الموظف إلا أن يعتذر بصوت خفيض ولكنه مسموع ، وأن يأتى باللافتة التى تفيد إغلاق الشباك فيضعها ، وأن يكرر الإعتذار وأن ينصرف لحاله ، ...

صورة مصغرة معبرة عن طريقة إدارات (قادرة) علي إبراز حلول وهمية للمشاكل التى خلقتها !! .

* * *

الطابور أو الطوابير الأربعة طويلة ، ويأخذ المسافر حوالى عشر دقائق فى كتابة إستمارات ، ونقل بياناته من على الجوازات ، وفى الطابور عرب من بلاد المغرب العربى وآخرون ممن يعملون فيه ، ولا أمل .

تسأل عن بنك آخر ، فيقال لك فوق فى صالة السفر ، كيف تصعد إلى فوق ، ليس هناك مصعد فى مطار روما الدولى ، أو هكذا قالوا ، إذا صعدت إلى الموظفة ، وجدتها جهزت خطبة تقول ، إنها مسئولة عن الشراء لا عن البيع !! ، هى تشترى ليرات ولا تبيع !! (تصور هذا المنطق فى بلد يحتاج بالطبع إذا كانت هذه سياسته إلى كل دولار وكل إسترلينى وكل مارك وكل فرنك) وصاحبتنا تشترى الليرات ولا تبيعها ! وإن الذين يبيعون هم أولئك الذين تحت ، ويشرح لها الناس الموقف تحت ، ولاأمل عندها ، وأنا أمامها أتسلح بقوة الصمت لأنى وجدت أن قوى العقل والإقناع لاتثمر معها ، وقد أفلحت قوة الصمت ، فقالت لى بعد أن صرفت الناس جميعاً سأغير لك ياسيدى مائة فرنك (فقط) من هذه التى معك .

* * *

إنى ذاهب من فورى ياسيدتى إلى ماراتيا .. هل تعرفين معنى أنى ذاهب إلى ماراتيا بما تحتاجه ماراتيا .. المائة فرنك ياسيدتى لا تنقلنى إلى قلب روما ، فإنصرفت إلى العمل ، وإنصرفت بما حولت من نقود .

لاأريد أن أطيل عليك ولكنى أختصر لك مظهر ال .. الإيطالية : فسائق الأتوبيس الذى ينقل الناس من المطار إلى وسط البلد لايسمح لهم بالصعود إلى الأتوبيس إلا فى آخر دقيقة حين يأتى وهو حامل مفاتيح خزانته للنظر فى التذاكر بينما الناس على الأرض ، وقف أربعون على الأرض حتى تكرم وجاء ، فإذا انتهى بك الأتوبيس إلى وسط البلد ، لم يتركك فى محطة القطارات فى روما وإنما تركك على رصيف يؤدى إليه بعد ٥٠٠ متر ، هذا من باب العذاب ، وعلى

الرصيف عربات تستطيع أن تحمل عليها حقائبك لهذه المسافة ، ولكنها فى أيدى الحمالين ، وحذار أن تقترب منها ، هذا هو الاحتكار ! أو الاحتكار البغيض لأنهم قد ظلموا معنى الإحتكار على مايحوى من مساوىء ، فإذا سألت عن أجرة الحمال من هؤلاء قيل لك مع التكرم : عشرة آلاف ليرة .

* * *

وتصل محطة روما للسكة الحديد بعد عنا... شبابيك كثيرة ليس عليها إلا أرقام وأمامها أعداد كبيرة من البشر ، وقد اكتشفت بعد كثير من المحاولات أن عليك أن تعرف رقم الشباك الذى يمكنك أن تحصل منه على التذكرة إلى المحطة التى تريدها ، فالشبابيك مختلفة ومرقمة من أجل هذا ، وحتى تصل إلى رقم هذا الشباك ، لابد أن تسأل فى الاستعلامات ، والاستعلامات هى الأخرى طوابير ، وشبابيك ، وكل شباك متخصص فى نوع من الاسئلة ، وعليك أن تعرف أولا الشباك الذى يجب ان تسأل فيه عن حاجاتك وحتى تجد من يفهم سؤالك فهذا حدث نسبة احتماله ١ : ٣٠ أيضاً لأن كثيراً (٢٩ من كل ٣٠) يفهمون السؤال بعدما يتعبونك فى الشرح والتوضيح ثم يقولون لك بلا إكتراث : لانعرف ..أو إسأل شباك آخر ..بكل بساطة . على أن المصيبة الأعظم أن تكون الإجابة التى تأتيك هى الضلال ، فالضلال والفتوى بغير علم هى الأصل هنا ، أما تحرى الصواب فلن تجده إلا عند ١ من كل ٣٠ يجيبون عليك وهم الذين يمثلون ١ : ٣٠ من الذين يفهمون سؤالك وهم يمثلون ١ ٣٠ من الذين يقبلون أن يحادثوك أصلاً ويتواضعون لأنهم يقولون لك أنهم يعرفون لغة غير الإيطالية .. بلغة علم الاحتمالات فإن وصولك إلى الحقيقة مع أحدهم إحتماله ١ : ٩٠٠ وهذا هو ماحدث بالفعل معى .. إذا لم تكن تصدقنى فإذهب إلى محطة روما .. ولكن لمذا تذهب إلى محطة روما فى قلب روما فى قلب إيطاليا ، اذهب إلى الخطوط الجوية الإيطالية (اليطاليا) فى قلب القاهرة واسألهم عن أى شىء وراجع إجابتهم ، هذا إذا أجابوك ،.. وهذا إذا فهموك ، وهذا إذا إستمعوا إلى سؤالك من الأصل ، .. ولاأظن أنى أظلمهم فى شىء ، فقد ذهبت إليهم منذ شهرين أسألهم عن أقرب المطارات

إلى ماراتيا ، ومعلوماتى حسب ماهو مذكور فى برنامج الندوة إنها فى جنوب نابولى بحوالى مائتى كيلومتر ، ونابولى إلى الجتوب من روما وإلى الشمال من الجزر الإيطالية فى البحر الأبيض ، وكان ظنى أن تكون قريبة إلى إحدى هذه الجزر !! ، فقالوا لانعرف ، فألححت فى أن يفتحوا الخرائط ويبحثوا ...... وفى النهاية قالوا إنها بين روما وبين نابولى (يعنى شمال نابولى) كيف هذا ياعالم ... قالوا هذه هى الحقيقة . قلت هل هى أقرب إلى روما أم إلى نابولى ، قالوا إنها فى النصف بالضبط (ضلال فى ضلال) .

* * *

هدانى الله إلى الشباك ، كل مافى وسع بائع التذاكر أن يسأل الجهاز عن ثمن التذكرة ويعطيها لك ، تذكرة من محطة وصول إلى محطة قيام فحسب ، وعليك أنت وعليك أنت أن تبحث عن موعد أقرب قطار ، ومساره ، والتغير الذى تحتاجه ، والرصيف ، واسم القطار حتى تعرف كل ذلك من خلال الخرائط أو الجداول .. وصاحبنا الذى يبيع لك التذكرة لايعرف من أمر ذلك شيئاً ، أو كأن وظيفته فى الروتين الغبى ألا يعرف من أمر ذلك شيئاً .

وهذه هى مصيبة الروتين الحكومى الذى يرفع شعار توزيع الاختصاصات فتكون النتيجة أن يتوزع الإنسان صاحب الحاجة ويتمزق ! وأن ينغلق الإنسان صاحب الوظيفة ويتضاءل ! .

* * *

ولعلى أقول هذا اليوم لأنى أحس أننا نوشك أن نقع فى مثل هذا الأسلوب الغبى فى العمل ، أو أننا فى سبيلنا إلى الغرق فيه ، وليس فى كلامى مايحتاج إلى شرح ، ا التعامل مرده إلى جهل أو عجز أو بأس أو مع حسن الظن وحسن العبارة إلى سلوك واحد من طبقة المرفهين فى محطة سكة حديد !! ، وأقول بكل الثقة لا ، فقد تعاملت (وتعامل غيرى) مع السكة الحديد فى ألمانيا الغربية وفى بريطانيا وفى الولايات المتحدة وفى الهندوفى فرنسا وحتى فى مكاتب سياحة ليست فى قلب المحطة ، وكان الموظف هناك أو هنالك يعطيك استمارة فيها كل البيانات وعلى سبيل المثال : تركب قطار رقم كذا من محطة (آخر)

مثلاً الساعة كذا من رصيف كذا يتحرك الساعة كذا ويصل (كولون) الساعة كذا على رصيف كذا ، تتحرك إل وقد يى رصيف كذا فتأخذ القطار رقم كذا يصل الرصيف الساعة كذا ويتحرك من على الرصيف الساعة كذا إلى محطة المطار الدولى بفرانكفورت الساعة كذا تحت النهايات كذا ..كل هذا مسجل لك على تذكرتك وعليها اسمك إذا أردت ، تأخذها بكل هذا ، بعد ماتطلبها بدقيقة أو دقيقتين ، (وليس الأمر مقتصراً على الوصول إلى فرانكفورت) ولكن إذا أردت أن تخرج منها إلى أبعد نجع فستجد أيضا الوصف الدقيق ، وسيخبرك الموظف بين قطار يقوم بعد ساعة ويصل بعد أربع ساعات وبين آخر يقوم بعد ساعتين ويصل فى ثلاث ساعات وربع .. هكذا بلا مار المختلفة ، وإنى لأذكر مثلاً أنه كان أمامى ذات مرة نوعان من التذاكر بين مانشستر ولندن ، الأول هو أقل سعراً سعر الشباب وكان يكلف عشرين جنيهاً إسترلينياًمثلاً ، والثانى هو الذهاب والعودة على أن يستعمل فى قطارات معينة وكان يكلف ثمانية عشر جنيهاً إسثلاً ، ورغم أنى كنتى أعرف إنى لن أعود إلى مانشستر طيلة صلاحية التذكرة فقد إخترتها بناء على نصح مكتب السفر نفسه !! .

* * *

مع هذا كله إذا وصلت القطار المحترم من قطر البلاد المحترمة وبالأخص القطار الألمانى وإسمه هناك علم كبير (الديوتشى بان) فإنك واجد فيه فيترل كل ديوان ووراء كل مقعد جدولاً (أو خريطة) فيه مسار القطار من أوله إلى آخر محطة ، والبلاد التى تستطيع أن تنتقل من قطارتها من هذه المحطة وأرقام القطارات التى تذهب إليه ومواعيدها وهل فيها عربات للأكل وللنوم أم لا ؟ . كل هذا فى(مبالغة) ولكن الحال فى روما أن هذه الجداول ليست متاحة حتى فى مكتب مدير روما نفسه ، لأنها مع الحكومة المركزية ! مع هيئة السكك الحديدية نفسها ! وقد يكون مقر هذه الهيئة قريبا من مقرات ألمافيا تحت الأرض الإيطالية ! وقد يكون هذا الفرق الظاهر أو الفرق الكامن بين عقلتين ، بين عقلية ألمانيا الغربية وبين عقلية إيطاليا .. أو كما يقول الناس بين المرسيدس والفيات .. ولكننا لانريد أن نذهب فى ظلم الطليان إلى هذا الحد فنقول أن هذا الفرق بين

عقليتين ، ولكن يكفينا الآن أن نقول إن هذا هو الفرق بين نمطي الحياة صنعته الإختلافات بين عقليتين .

* * *

لست في حاجة بعد ذلك إلى أن أصور لك كيف استطعت الوصول إلى القطار وإسمه ومواعيده ، فهي سلسلة من هذا البحث عمن يفهمك ، والبحث عمن يعرف بين من يفهمك ، والبحث عمن يقول صواباً بين من يعرفون ، وفي النهاية (الساعة السابعة إلا خمس دقائق) وصلت إلى اسم القطار وأن موعده القادم الساعة ٤٤ , ٨ دقيق على رصيف ١١ (لاحظ أنني وصلت مطار روما الساعة الثالثة والنصف وخرجت منه حوالى الساعة الخامسة والربع ووصلت محطة القطار حوالى الساعة السادسة ودقائق) .. وقد يستكثر الناس عليَّ أن أصف هذا التباطؤ والوقت الكثير ، ولكني أؤكد أن لو كانت ماراتيا في ألمانيا الغربية أو في بريطانيا أو في فرنسا أو في الولايات المتحدة لما استغرق الأمر بين وصولي المطار ووصولي إلى محطة القطار أكث من نصف ساعة . وحتى في الهند ما استغرق أكثر من ساعة لأن الهند لحسن حظها متأثرة إلى اليوم بالنظام الإنجليزى .. هل أقول : ولكن لم يكن من حظ إيطاليا أن يستعمرها الإنجليز ؟ أخشى أن أقول فيثور عليَّ أعداءُ الإستعمار .

* * *

لم أكن قد نمت منذ غادرت فيلادفيا إلى نيبورك إلى مدريد إلى روما وكنت أخشى أن أذهب إلى البوفيه بحقائبى ، فهو بعيد ، وشكله لايطمئن ، إذن فالقطار سيصل حتى قبل موعده بوقت كافٍ (لأن هذه هى محطته الأولى) ويهيء لىَّ أن أختار مكانى وأجلس فيه أو بعبارة أخرى أنام ، والمسافة ستأخذ ٦ — ٨ ساعات .. كنت أظن القطار يأتى فى حدود الثامنة أو بعدها بربع ساعة أو نصف ، ولكن حسن حظى بعد كل هذا العناء جعلنى أرفع نظرى إلى لافتة الرصيف التى سمعتها كشأن تلك اللافتات وهى تتحرك ، فوجدت عليها أن القطار الذى جاء لتوه (فى حوالى السابعة وخمس دقائق) هو قطارى الذى يتحرك (حسب الجدول) بعد تسع وتسعين دقيقة ..بالله . ياما أنت كريم

يارب !! .

* * *

بكل الثقة توجهت إلى القطار ، وبينما أنا صاعد سألنى عامله عن وجهتى فقلت له ، فأجابنى أن هذا القطار لايذهب هناك لم أعره إهتماماً ، وقلت له أننى متأكد ، فذهب عنى ثم عاد إلىّ بعد دقائق ، يعتذر أنه لم يكن فى وعيه أو فى رشده أو شيء من هذا ، فكان هذا أول عهدى باعتذار ايطالى عن فعل !!

* * *

مائة دقيقة من النوم المريح فى ديوان مقفول عليك لاضوء ولاصوت يأتيك من هنا أو هناك لأنك أحكمت إغلاقه ، وبالإضافة إلى هذا لاحركة ولاإهتزاز لأن القطار واقف فى مكانه .. مائة دقيقة بعد كل هذا العناء والسفر والمشقة واليأس والأمل .. تسألنى ماذا تساوى ؟ أقول لك تساوى إيطاليا كلها ، وكيف لا ؟ والحق يقال أننى عندما تيقظت مع حركة القطار كنت أظن بعد الراحة التى أحسستها فى جسمى أننا وصلنا ماراتيا ، لأن مثل هذه الراحة لاتأتى إلا من ثمان ساعات !.

* * *

فيما بعد وطيلة مسيرة القطار أخذنا نقاجأ بكل ماهو مضحك ، تجد الناس يجلسون فى ديوان من القطار فى أمان الله فيأتى لهم المسئول عن القطار فى محطة من المحطات ليخرجهم من ديوانهم إلى الممر لأن الديوان محجوز من هذه المحطة إلى محطة كذا .. وهكذا .. تجد حركة كثيرة بين عربات القطار لأن هذه التذكرة تصلح هناك ولا تصلح هنا ..إلخ) حركة وجلبة ، وكثافة الركاب إلى عدد المقاعد كبيرة حتى إنك تجد كثيراً من الناس يقفون فى الممرات أو يستعملون الكراسى التى بها مع أننا فى ساعة متأخرة ، المفروض أن يكون القطار فيها خاوياً على كراسيه ..

* * *

وفى القطار علمت أن علىّ أن أنزل فى سابرى وأن آخذ قطاراً آخر إلى ماراتيا . قلت : وكم أمكث فى هذا القطار ؟ قالوا ساعتين أو ثلاثة . وأكرر

قالوا بضمير الجمع لأنى على عادتى التى أخذت تنمو فى الشك فى هؤلاء القوم سألت أكثر من واحد ، وفى سابرى نزلت الساعة الثانية تماماً بعد منتصف الليل (لابد أن أشيد هنا بدقة المواعيد وأنه كانت الثانية تماماً فى جدول المواعيد) .
فى وحشة الليل وظلمته ورهبته لولا الإيمان بالله وبالقضاء والقدر لاتأمن على حياتك ولاعلى روحك ولاعلى مالك ! .. ولاتنقضى ربع ساعة حتى أجد سيدة تهمس من الشباك على بعد أربعة أمتار فى مواجهتى ، لاأعرف إلى من تتحدث ظننتها تتحدث إلى ، فإذا بى أفاجأ بمن يحادثها أو من هىء إلى أنه يحادثها وأنا لاأراه مع أنه معى فى الحجرة ، فاعتذرت له لأنى لم أره فألقى على التحية ، هنا وجدت الرجل الذى يجلس فى مواجهتى ومن وراءه الشباك الذى تتحدث منه المرأة التى يظهر أنها كانت تدبر له مؤامرة وقد قام فزعاً يجرى وراء المرأة التى فرت هاربة ، وأما الشاب الذى كان يقف بحيث لا أراه فقد انصرف بعد قليل ، وهو يظهر علامات التعجب . وبقيت أنا فى الحجرة المخصصة لإستراحة الركاب أستمع إلى شخير عال مرتفع هو أعلى من كل الخطب الحماسية التى تلقى فى النهار ، لأثنين من الركاب الذين يشاركوننى الإستراحة ، ساعتان وخمس دقائق على هذا النحو من القلق والإضطراب ، ولاأفتأ أخرج إلى الأرصفة أسأل عن قطار ماراتيا ، وفى ذهنى أو فى قلبى أنه سيكون على الرصيف قبل موعده بوقت كافٍ ، على مانحو ماكان من قطار روما ، ولافائدة ، وأصبح كل رجال الأمن الإيطالى (وكلهم ثلاثة) على رصيف محطة سابرى إذا رأونى أخرج من الإستراحة يقولون : لا ، أى لم يصل ، ثم جاء الخبر أنه سيتأخر نصف ساعة .. ياللحظ ..ثم جاء القطار وركبته فعلمت من ركابه أن ماراتيا هى المحطة التالية مباشرة وأنها ربع ساعة فقط أو أكثر قليلاً جداً ،..هذا مع أنهم قالوا إنها ساعتين أو ثلاثة .. على كل حال الحمدلله وليت كل الضلال تكون نتيجته هكذا .. فإنها الحقيقة السهلة تهوّن الضلال المر !! ، ولكن المأساة الحقيقية أن تعلم بعد ذلك بيومين أن الفندق الذى كنت تسأل عنه هؤلاء القوم والذى هو على الورق فى ماراتيا أقرب إلى سابرى منه إلى ماراتيا وأن بينه وبين سابرى بالتاكسى

٧ دقائق وبنه وبين ماراتيا بذات التاكسى عشرون دقيقة (هذا غير ساعتى الإنتظار بكل ماحملتا من إضطراب وخوف ونصف ساعة فى القطار) ياللغباء ! غباء مَنْ لا أدرى .. على أن كل مامر بك مما مر بى يهون إلى جانب تلك الساعة والنصف (أوأكثر قليلاً) الصعبة فى محطة ماراتيا التى نزلتها أنا وحدى من هذا القطار . ولم يكن فى المحطة غير إثنين أحدهما بزى السكة الحديد ، والثانى يظهر أنه إنتهى من دوامه الرسمى فى السكة الحديدأيضاً ويستعد للعودة إلى منزله . كان الأول يتكلم بعض الإنجليزية ، فسألته عن الفندق فقال إنه مكان جميل ، ثم انقلب إلى الإيطالية يتحدث بها ، وأنا أرجوه أن يتحدث الإنجليزية ، بلا جدوى ، لأنه أدرك إنى أفهم بعض الإيطالى الذى يقوله ، وأنا أحاول أن أثبت بكل الطرق إنى لاأفهم شيئا من الإيطالية ، ولكنه لايصدقنى ، ولا يريد أن يصدقنى ، أرجوه أن يتصل بالفندق ، فيثبت لى أن التليفون الذى عنده هو تليفون السكة الحديد ، وأن تليفون المدينة الذى فى المحطة قد كسر وخرب منذ مدة ، ويأخذ بيدى إلى مكان يزعم أن كان فيه تليفون المدينة قبل أن يخرب ، هل من أتوبيس ؟ هل من عجلة بخارية أو يدوية ؟ يشيير فى شىء من الإستهزاء والشماتة إلى الساعة فى يده أنها الرابعة والنصف الفجر ، فرجوته أن يجد لى حلاً بأى ثمن ، فلم يعرنى التفاتاً ، وإنصرف يرطن بالإيطالية دقائق معدودات ، فرجوته أن يتحدث بالانجليزية ، فقال لى فى شىء من الإستعلاء : فى إيطاليا لابد أن تتكلم الإيطالية ، فإعتذرت إليه أنى لاأعرفها ، فقال يجب أن تعرفها قبل أن تأتى إيطاليا ! ، تأتون إيطاليا وأنتم لاتتكلمون الإيطالية ؟؟ ، وكان يريد أن يكمل السلسلة أن هذا غش وخداع وتضليل وقلة ذوق أن نأتى إيطاليا ونحن لانستطيع أن نتكلم لغتها ..قد يستغرب القارىء مثل هذا المنطق اللطيف ، ولكن المؤكد أن الذين يعرفون أو الذين تعاملوا مع عقلية مواطنينا فى النجوع البعيدة من وطننا (أولئك الذين لايزالون يؤمنون أن حاكم مصر هو الملك فاروق الأول أو يدعون فى صلاة الجمعة للسلطان الغورى) لا يستغرب مثل هذا التفكير القاصر الذى يستنكر على زائر إيطاليا أن يزورها دون أن يعرف لغة أهلها (العذبة السهلة كما كانوا يصفونها لنا فى معهد دانتى أللجيرى

بالقاهرة) إنصرف عنى صاحبى وتركنى لصاحبى الآخر الذى لم يكن يقل عنه غطرسة وإهمالاً لشأن ضيفهم (الذى قطع الأطلنطى إليهم) وكأنه جاء لزيارة بلاد غير بلادهم . هذه عقلية الإهمال واللامبالاة التى تأخذ الأمور مأخذ المسئولية الفردية الاستبعادية فلا تكون النتيجة إلا إن يستبعد كل سائح هذا البلد من كل برامجه المستقبلية .

* * *

والوقت يمضى وأنا جالس فى مكتب هؤلاء '' المحولجين '' رغم أنفهم أتأمل فى حال هذا الأنف الذى لايشم ولكنه مع ذلك يترفع بلا مبرر .

حتى كانت الساعة السادسة صباحاً وجاء أول تاكسى ، وكان صاحبه رجلاً عجوزاً يبدو أنه تعدى السبعين ، فجانبه النوم فى الليل ، أو أنه استيقظ مبكراً لأنه ينام مبكراً على عادة المسنين ، كان التاكسى سيارة ريتمو وهى المرة الأولى التى أرى الريتمو فيها يعمل تاكسى (سيعمل فى مصر بعد عام أو عامين كطبيعة الأمور) ، انصرف الرجل إلى '' فيلا دى ماريا '' فى أناة وتمهل يفرضها ضيق الطريق ، وإن لم يستدعيها أو يفسرها خلوه من كل شىء ، والطريق ينحدر ويميل وينحرف وصاحبنا ثابت الجنان يعرف كل منحدراته ،يستعد لها ويتعامل معها برشاقة ، وينصرف منها بسلام .

حتى جاء إلى شبه باب أو مخرج من الطريق وانحدر إليه ، ولم يكن هذا إلا المدخل إلى الفندق . نزلت السيارة إلى مايبدو أنه المكان المخصص لإنتظار السيارات وهو أسفل الشارع بحوالى خمسة أمتار ، ثم أشار إلىَّ السائق أننى يجب أن أنزل بعد ذلك هذه الدرجات(خمساًوعشرين درجة) فأجد باب الفندق ، فأضرب الجرس ، فيستيقظ موظف الإستقبال ..

* * *

دعنى من أمر السائق وحسابه ومايسمى بالاستكراد ! وموظف الاستقبال وإستقباله ! وتأمل معى أمر هذا النفدق وكيف أخذ من جمال الطبيعة كل جماله ، ومن الإدارة البشرية كل ماينقص من بعض هذا الجمال .

الطريق كما قلت أعلى الجراج بحوالى خمسة أمتار والجراج أعلى

المدخل بحوالى أربعة أمتار وفى مستوى المدخل (ديسك) الإستقبال والمطعم وبعض الحجرات تحتل الطابق الثالث ، وفوق هذا الطابق بعض الحجرات التى تمثل الطابق الرابع من حجرات الفندق ولكنها لاتصل إلى مستوى الشارع أبداً ، وتحت الطابق الذى فيه المدخل الطابق الثانى وكانت فيه حجرتى ، وفيه أغلب الحجرات والبار وصالة التلفزيون ، وتحت هذا الطابق طابق آخر هو الطابق الأول كانت فيه قاعة الإجتماعات التى ينعقد فيها المؤتمر ، وحمام السباحة الذى كان يرتفع عن قاعة المؤتمرات أربعين سنتيمتراً ، والتراس الذى حوله وبين هذا الطابق الأول والطابق الثانى الذى فوقه طابق مسحور كما يقولون ، كانت فيه حجرات السكرتارية والمكتبة .

تحت كل هذه الطوابق الأربعة وتحت حمام السباحة كانت هناك حجرات لاندرى ماشأنها ، ولم تكن أبوابها الأنيقة تدفع إلى الظن فى أنها مخصصة للمخازن .

تسألنى بعد ذلك عن شاطىء الادرياتيكى التى تقع عليه ماراتيا ويقع عليه فندقنا . ولك كل الحق فى السؤال . ولكنه تحت حمام السباحة بحوالى ستين متراً ... ولم يكن النزول إليه بالأمر السهل إنما هو يحتاج إلى مصعد ينزل بك (بمائتى ليرة) ثم درجات مائة فى أكثر من منحنى جبلى صعب ، وكنه كان بالأمر المعتاد من نزلاء الفندق خاصة فى فترة الظهيرة حيث ينصرف أعضاء مؤتمرنا وهم أغلب نزلاء الفندق إليه . تأمل الأدرياتيكى كله لك وحدك أنت وعشرة أو خمسة عشرة فقط تعرفهم وتألف أغلبهم . تصور أنك تملك هذا الشاطىء لايعكر عليك صفوك فيه ولايقطع عليك تفكيرك وأنت عليه زحام بشر ! ولا ضجيج مرور ! ولاصوت سيارة ! ولاحركة حياة ! ومن أين تأتيه الحركة وهو بعيد عن الميناء ! بعيد عن الطريق ! ، والطريق بعيد عن الحياة ! ، والحياة بعيدة عن هذه المنطقة ! ، أحقاً أن الحياة بعيدة عن هذه المنطقة ؟ ، أم أن هذه هى الحياة الحقة التى حرمتنا منها المدينة الحديثة ؟.. وهل حقاً حرمتنا المدينة الحديثة من هذه الحياة الحقة ؟ كيف تقول ذلك وقد جئنا هنا فى يوم أو يومين من أقصى الدنيا بوسائل المدينة الحديثة ؟ وكيف نقول هذا ونحن لم

نأت إلى هنا إلا لنناقش مرضاً من أبرز أمراض المدينة الحديثة .. فلنقل أن المدينة الحديثة باعدت بيننا وبين الإستمتاع بهذه الحياة أو بمثل هذه الحياة الهادئة الصامتة الساكنة ولكن أن نقول إنها حرمتنا فهذا ظلم بيّن .

* * *

إذا كنت على الشاطىء نظرت فلم تجد للماء الذى أمامك نهاية ، وليس هذا بالشعور الجديد عليك هنا ، ولا هو بذى علاقة بغور الماء ولا باتساع السطح المائى الذى أمامك ، فإنك واجد هذا الشعور على شاطىء الأطلنطى كما تجده هنا تماماً بتمام ، إنما تستطيع أن تفاضل بين هذه الشواطىء بصفاء الماء ، وبلونه ، وبحرارته ، وبقوة أمواجه ، وبمده وجزره ، وبصخوره وكيف يسير الشاطىء فى إنحدار وإعوجاج وإنحراف .. كل هذا يتيح لك أن تفاضل بين هذا الشاطىء وذاك وأن تشعر أن لكل شاطىء من هذه الشواطىء سماته التى هى له من دون غيره .. عن هذه السمات أستطيع أن أحدثك وأنا واثق أنى لاأضيع وقتك فى الأوصاف التقليدية (الأكليشيهات) من صفار الرمل وزرقة الماء الداكنة ونظافته التى تجلو عنها أثاره التى لاتتبقى .

هل تستطيع أن تقدر بُعد مسافة شاطىء الأسكندرية أو رأس البر أو مطروح أو بلطيم ..لا لأنك تستطيع أن تمتد بهذا الشاطىء من الماء إلى داخل المدينة على نفس المستوى . وليس على هذا الحال شاطىء ماراتيا إنما هو شاطىء ضيق (إن وجد) لايمتد لأكثر من عشرة أمتار تليها المرتفعات التى ترتفع مائة متر إلى الطريق لتجد من فوقه مرتفعات أخرى ترتفع مائة متر أو مائتين أخريين أو لعلك تتصور الآن السائر على الطريق أو بالأحرى الشريط الضيق المرصوف الذى يمتد بإنحناء بين مستويين من الجبل ، فإذا كان على يمينك الجبل العالى فإن على يسارك الجل الآخر الذى سفحه هو الماء الذى لاأول له ولا آخر ..تصور أنه لاقدر الله إضطر السائق أن ينحرف عن الطريق هذه الناحية .. إرجع بمخيلتك معى إلى الطريق بين المنصورة وبنها فى بعض مناطقه فى الصيف حين يرتفع منسوب الماء فى الريَّاح ، ويصبح الموت غرقاً هو المصير الذى ينتظر من تنحرف منه عجلة القيادة ناحية الرياح .. هذه صورة مبسطة

للصورة التى تجدها هنا ، ولكن بين ريّاحنا الذى نحسبه عميقاً وضخماً وبين الطريق حوالى خمسة أمتار هى منطقة أمان ، يقابلها هنا خمس بوصات فقط .. وعندنا فإن مستوى الريّاح في مستوى الطريق ، ولكن مستوى الماء هنا تحت مستوى الطريق بخمسين متراً .. تصور معى كيف يمكن تصوير أفلام الرعب البوليسية على مثل هذا الطريق ذى الأمتار الستة أو السبعة عرضاً ! بل إقرأ مثلا قصة '' القديس يهاجم المافيا '' وتصور قائد السيارة حين إصطدم بسيارة من سيارات المافيا جانباً فتدحرجت من هذا الطريق إلى مايسمونه الموت !! .

* * *

دعك من كل مايخوّفك أو يغريك فى هذا الفندق وإنصرف معى إلى حجراته الضيّقة وهو ذى الأربعة نجوم تجد كل حجرة منه على البلاط أقصد بلا بساط ولا موكيت ولا سجاد . وحمامه كما وصفه صديقى الألمانى (funny) لابانيو ولا خلاط والماء الساخن لايأتيك فيما بين منتصف الليل وطلوع النهار (الذكاء الإيطالى لأنهم يعرفون أنك بحكم الصمت القاتل فى منطقة الفندق لافى الفندق فحسب ستذهب إلى السرير قبل هذا الوقت) ولا تلفزيون فى الحجرات إنما هو فى صالة التلفزيون والتليفون على الخط المركزى عند عامل الديسك ، وعند هذا ميكروفون لايفتأ ينادى به على من يأتيه تليفون (ولابد أن أذكر لك هذه الرقة ممزوجة بالسرسعة تأتينا على لسان عاملة التليفون ..دكتور فلان ..تليفونو ..حسب لغتهم) فينصرف النزيل أو النزيلة من حمام السباحة ..أو من المطعم أو الشاطىء أو قاعة الإجتماعات مسرعاً .. ولاتكييف مركزى ولامحلى . صحيح أن الجهاز موجود ولكنه معطل .. ومع هذا كله فإن سلطات السياحة الإيطالية تمنحه درجة أربعة نجوم .

* * *

كل مافى هذا الفندق هو البار . لاأدرى هل هو محترم كبقية حجرات الفندق ؟ ، ولكنه السىء الوحيد الذى ينصرف إليه بعض النزلاء كل مساء .

إذا خرجت إلى الشارع لاتجد إلا سيارة تعبر الطريق كل خمس دقائق ، مرة واحدة خرجت فسمعت صوتاً قادماً من بعيد ، واذا بسيارة بضاعة

والميكرفون عيها ، ووقفت السيارة لينادى الرجل بعض الوقت ولم أكن بمطمئن إلى أننى سوف أفهم مايقول ، فإنصرفت إلى مؤخرة السيارة فوجدتها محملة بالعنب فى شمق ، فى الشفة حوالى خمسة كيلو وسألته عن ثمنه فقال أربعة آلاف ليرة '' يابلاش '' لسوء حظى كنت خرجت يومها بملابسى الرياضية وليس معى نقود اذ ليس فيها جيب ، فأسفت وتمنيت أن يعود ، فلم يعد . أو لعلى لم أخرج فى وقته ، أو لعله يأتى كل أسبوع مرة ، بل ربما مرة واحدة فى موسم العنب ! .

* * *

أحدثك عن المرشدة السياحية التى قادتنا يوم الأربعاء فى جولة استفاضنا فيها مكتبهم السياحى .. لم تحضر مع الأتوبيس ولا عند تحركه ، إنما اتفقت مع السائق أن يتوقف بالأتوبيس لها عند ناصية ما (فى هذا الطريق الذى لاتجد فيه إلا نواصى المنحنيات) ، فجاءت وقدمت نفسها ، وحاولت أن تقول شيئاً بالإنجليزية فلم تفلح ، فذهب إليه الأستاذ اليهودى من آخر الأتوبيس وطلب إليها بطريقة مهذبة أن تنصرف عن مهمتها (يقصد عن فشلها فى مهمتها) ففعلت إلا من كلمات قليلة كل خمس دقائق تقول لنا هذه قرية كذا ..فتنطق Village بالواو فى أولها حتى تعجبت الأستاذة الإنجليزية الكبيرة من جامعة (إبردين) وسألت وهل ليس فى الإيطالية حرف الـ (V) ؟ .

* * *

أم أحدثك عن طاقم المطعم ، وكلهم يحبون الكرة ورئيسهم يحب السياسة ويقدر السادات ويكره الألمان ، كنت فى أول يومين لا أطيق رؤيتهم ولا حركاتهم ، ثم تلطفوا معى إلى أن صاروا أصدقائى ، عرفت طبعهم فعاملتهم طوعاً له .

* * *

أم أحدثك عن تلك الفتاة التى تعمل فى الفندق، والتى تتكلم الإنجليزية والتى كلفوها بأن تكون حلقة الوصل بين المؤتمر وبين الفندق وشركات السياحة والطيران وأن تنظم لنا الحجرات وإحضار الحقائب المتخلفة ..إلخ ، وأن ترد

على أسئلتنا ، هكذا كلفوها ، ولكنها لم تكلف نفسها من ذلك شيئاً إلا أن تُعّقد لك كل مسألة قابلة للحل ، فحجز الطائرة يتم عن طريق شركتهم السياحية فى سابرى ، والمسألة بسيطة هكذا تقول لك ، لن تكلفك إلا ثمن مكالمة التليفون إلى سابرى وكم ياسيدتنا : خمسة آلاف ليرة فقط ! ، ولكنى متأكد أنها ستعود لهم بالأعذار وهكذا فعلت دوماً مع تنويع وتكرار في الأعذار ، لم يكن أحد فى المكتب فى روما ! ، نابولى لاترد ! ، سنحاول غداً ! ، وقبل كل ذلك تقول لك : حسناً (Well) تؤكد على اللام المشددة !! ، فينشرح صدرك ثم سرعان ماينقبض ، لاتجد عندها إلا قواعد روتينية وقوانين تشرح لك أصولها وفصولها ، عندنا للأسف مثل هذا النوع فى مصر ، يظنون أنك تذهب إليهم ليشرحوا لك القوانين المانعة لتحقيق طلباتك .. فى حين أنك ترجو تحقيق طلبك .. يظنون أنهم بهذا التفصيل فى الشرح يُبرأون أنفسهم ، وهم لايدرون أنهم لايضيفون بعداً سيئاًإلى أبعاد شخصياتهم الواهنة الواهية .. لا أظننى أتحامل فى هذه الفقرة ، ولكنى أحب أن أعبر فيها عن ذلك الشعور الذى يعترى صاحب الحاجة المشروعة حين يجد من هو مكلف بقضاء حاجته وحاجات الناس ولا يقضيها ، ويشرح ويثبت أن الأصل ألا يقضيها ، ثم يكون فى وسع صاحب الحاجة إذا ما لجأ إلى طريق آخر أن تقضى حاجته فى وقت يسير ، فى حين — وهذه هى المصيبة أو مصدر الألم الحقيقى في مثل هذه الموظفة يأخذ من وقت الإنسان يوماً ويومين ، ويعطى الأمل فى أنها ستقضى ولكن بلا جدوى .

* * *

ولقد علمتنى الحياة إذا توسمت فى الإنسان من هؤلاء أنه من هذا النوع أن أسأله فى حدة : هل هو عازم أن يفعل شيئاً أم أنه سيسأل ؟ هل أوكيه (OK) معناها أنه سينفذ أم أنه سيعرض الموضوع ؟ ، هل غداً معناها أن الموضوع سينتهى غداً كما أريد أم أنه سيبدأ فى عرضه غداً ؟ هل بعد ساعتين معناها أن الموافقة ستتم بعد ساعتين أم أن الطلب سيعرض على المختص بعد ساعتين ؟ بمثل هذه الحدة كنت أوفر كثيراً من الوقت الثمين .. وكم من مرة أسفت فيها أنى لم أستعمل هذا الأسلوب القوى الفعال ... ولا أظننى ندمت

حتى الآن ولو لمرة واحدة على إستعماله مع هؤلاء ، ولقد أذكر أنى قلت لهذه الفتاة على مسمع من بعض الزملاء أعضاء المؤتمر إننى لست بمجنون لأعطيها التذكرة لتغير لى عليها موعد أو موعدين فلا أدرى ماالعواقب ؟ ، وسوف تعود مرة ومرتين وثلاثاً بأن هذا ليس ممكنا لأن الطائرة كاملة العدد بينما الطائرة ليس عليها إلا خمسة ركاب من أربعمائة ! ، أو أن هذه التذكرة غير قابلة للتعديل أو .. أو .. من قواعد الطيران الألف . لاشك أن معلوماتها فى الطيران لاتقل عن ١٪ وعلى هذا لن تعدم عشرة أعذار ، تراوح بينها يوماً بعد يوم وهى لم تتصل ولايحزنون .. هذا فضلاً عن ضياع التذكرة أو عن غيابها هى يوم سفرى أو .. أو .. إلخ ، هكذا كانت عبارتى بكل قسوتها أننى لست مجنون ، وقد أيدنى بعض الأساتذة المخضرمين ، على حين ظن بعض الشباب أننى أتحامل ، وسوف تريهم تجاربهم أنى كنت أتحمل ولا أتحامل (وقد أرتهم الأيام بالفعل !!) .

* * *

أم أحدثك عن إنتظام أعضاء الندوة جميعاً فى الحضور ، كنت أنظر فى كل ندوة صباح مساء لعلى أستطيع أن أكتشف غياب واحد من الأعضاء فلا يمكننى حضورهم من إكتشاف غياب أحد ، ولم يكن هناك دفتر للحضور والإنصراف ، ولاورقة نكتب فيها إسماءنا قبل دخولنا ، ولاشيئاً من هذا ولم يكن هناك مسئول يلاحظ علينا انتظامنا . إنما هو الانتظام الداخلى الذى لم يكن فى حاجة إلى رقيب .

* * *

أم أحدثك عن قاعة المحاضرات التى هى أهدأ مافى الفندق الهادىء ، حائطهاالأيسر من الزجاج يطل على التراس حول حمام السباحة ، ولكنه مغطى بستائر كثيفة من الداخل تحول بين العلم وبين العبث ! (أو الإسترواح من العلم) ، وليس للقاعة حائط أيمن ، وإنما تنتهى القاعة لتتخذ من الجبل المجاور حدها الأيمن وهذه الواجهة من الجبل الصخرية فيها كثير من الأعشاب الخضراء بين الصخور التى هى لارمادية ولا طوبية . فأنظر إلى قدرة المهندس المعمارى

حين سخر الطبيعة أو حين إستغل الطبيعة فأبدع وأمتع وإستنفع .

ولكن القاعة مثلها مثل حجراتنا ومثل المطعم ومثل كل شيء فى هذا الفندق « لاأستطيع أن أترك القلم يجمح ويقول ومثل كل شيء فى إيطالي » على البلاط ، ولعل هذه المرة الأولى التى أكتشف فيها من أين أتى نظامنا المصرى فى مسألة البلاط والرطوبة المحترمة ! .

* * *

أما هذا الفندق ، فليس فيه إلا مفتاح واحد لكل حجرة ، هكذا قالت لنا الفتاة ، وطلبت إلينا أن نترك المفاتيح دائماً فى الإستقبال ، حتى يمكنهم التنظيف ، أو حتى نجد نحن الذي نشارك بعضنا حجراتنا مفاتيحنا من دون إجهاد ولا تعب فى البحث عن الزميل ، وكنت أظنها تقول هذا من باب الإحتياط ، فاتضح أنه من باب الواقع ، وحدث أن جارى الفارماكولوجى الفرنسى جاء ذات يوم من الدور الذى يقع تحتنا ومعه صبى من عمال الفندق معه مفك وشاكوش ، كانوا يعتزمون فتح الباب بهذه الطريقة ، فاقترحت عليهم أن يقفزوا من بالكونة حجرتى ، إلى بكونة حجرته (ولم يكن لشرفة حجرته إتصال بالحياة إلا عن هذا الطريق) ، وامتن الرجل إمتناناً شديداً ، وفُتح الباب المؤدى للبلكونة بالطرق اللولبية ، ودخل ، ولم يجد مفتاحة فى الداخل أيضاً ، وعاد من حجرتى بنفس الطريقة ، مرتين وثلاثة حتى اكتشفوا أن المفتاح كان عندهم ، ولكن غباءهم جعلهم يضعونه فى مكان غير المكان . لعلهم لم يكتشفوا ذلك إلا عندما أحضر المفتاح الأصلى صاحب المكان الذى وضعوا فيه مفتاح الفرنسى خطأ ... وتحيا ايطاليا

* * *

لا يأتى الصابون إلا بالطلب ، ولاورق للتواليت إلا بالطلب ، والماء الساخن كما حدثتك لاتجده بعد الحادية عشرة مساء ، حتى صباح اليوم التالى ، بل حتى ضحاه ، والتلفون بالدور ، وتدفع لكل شيء ثمنا ، احتجت بعض الورق الأبيض لأكتب عليه ، فأعطونى ورقتين بالعدد ، فلما طلبت مرة ثانية ، قالت لى فتاة الاستقبال ، تعنى أنك تريد ورق ثانية ؟ فقلت نعم ثانية ، قالت : كم ؟

إنتابتنى نشوة من السعادة أن ستطعطينى ٨ - ١٠ ورقات وشعرت لأول مرة بالإمتنان ، قلت لنفسي لقد أحسست بحاجتى ، ولاتريدنى أن أقع فى ذل الحاجة مرة ثانية ، ولهذا تسألنى عن العدد .. وللأسف لم تستمر النشوة ولا السعادة فقد فوجئت بها تقول هل نضيف ثمن هذا الورق على حسابك ، كدت أقول بكل إمتنان ، ولكن الله هدانى لأسألها كم ثمن الورقة الواحدة ؟ قالت ألف ليرة . قلت : لا ! وشكراً .. ثمانون قرش للورقة الكوارتو ٦٠ جرام .. من يكون الحرامى إذن !! .

* * *

كان علَّى فى نابولى أن أذهب إلى المطار ، حتى إذا وصلت مطار روما كان على أن أعود إلى وسط البلد مرة ثانية ثم أعود إلى المطار .. إذن فالقطار من نابولى إلى روما مباشرة أرحم (لا بأس من التضحية بثمن التذكرة الذى دفعته ولن يعود إلى) ، وهو كما أخبرونى يأخذ المسافة فى ساعتين وربع ..إذن فلابأس . قطعت التذكرة وسألت عن القطار المتحرك إلى روما (كانت الساعة الثانية إلا دقائق) فكتب لى الرجل اسم قطار جنوة يتحرك فى الواحدة وثمان وثلاثين دقيقة .. ولكن الساعة الآن الثانية ياسيدى ..قال : لم يتحرك بعد ، الحقه . جريت أحاول اللحاق به وأنا أبحث عن قطار جنوة الذى لم يتحرك بعد ، فلاأجده . وأسأل فأجد الناس ينتظرونه ... إذن فالقطار لم يتحرك من الجراج بعد وكأننا فى باب الحديد !

نصحنى شاب لطيف أن أبتعد عن قطار جنوة لأنه إذا لم يأت الآن فلن يأتى قبل ساعتين ، وأشار إلى قطار على رصيف بعيد ، وقال هذا سوف يكون قطار روما ، فقلت ولكن اللافتة لاتقول ذلك ، قال لاعليك من أمرها . وكان الجلوس فى قطار لن يتحرك خيراً من البقاء على المحطة بين أناس يتحركون فى قلق يقلقك على الليرات القليلة التى فى جيبك .. يأتى الناس إلى يسألوننى ، بماذا أجيب ؟ هل سيفهمون الصدق إذا قلته ، وإنصرفت إلى الإجابة بمط الشفتين وتحريك اليدين على طريقة الطليان ! حتى وجدت الناس يندفعون إلى القطار فسألتهم ، فقالوا روما .. وعجبوا للجالس فى القطار يسأل القادم إليه .

على أن الحال لم يستمر لأكثر من دقائق معدودات نادّوا بعدها أنّ علينا أن نتحرك من رصيف ١٧ إلى رصيف ١٣ (هذه هى التفاصيل الدقيقة التى لو كان عندهم أرشيف لحركة القطارات والإعلانات عنها لوجدوها دقيقة ١٠٠٪ دقيقة) هناك جاءنا قطار بعد عشر دقائق فركبناه ، وبقينا به عشر دقائق أخرى حتى نادّوا علينا أن نرجع إلى رصيف آخر ، كان هو الرصيف الأول (١٧) ، وركبنا القطار ، وإنتظرناه حتى تحرك الهوينى ، وإذا به يقف من آن لآخر .. أهذا هو الإكسبريس أيها السادة ؟ نعم ياسيدى ألا ترى سرعته ، نعم إنى أرى سرعته ولكن الذى يزعجنى هو الوقفات المتوالية ! ، لم يعد إلا خمس وقفات فقط .. لافائدة ..إيطاليا ... ويرحم الله موسولينى .

* * *

تسألنى عن ألطف شىء فى الفندق أو البنسيون الذى نزلت فيه فى روما ، لأنك لاتريد كل تفاصيله ، أستطيع أن أخبرك عن أمرين ، الأمر الأول أن المصعد فيه لايتحرك إلا إذا وضعت له عشرة ليرات ، وهى عملة نادرة الآن فى إيطاليا (حوالى ٨ مليمات) وفيها أزمة أو ندرة كالمليم المصرى اليوم ! وبهذا فإنه من النادر أن يتحرك هذا المصعد .. إلا لساكن يدخر هذه العشرات ولعله يستخرجها من جيب المصعد من حين لآخر ..

أما الأمر الثانى فأمر صنبور المياه ، هذا الرجل لايتيح المياه الساخنة لنزلاء البنسيون إلا نحو ساعتين فى المساء ، ثم يصعد فى حوالى الحادية عشرة (رأيته بعينى) فيقفل كل الدوائر الكهربائية التى تشغّل السخان . على أن الأعجب من هذا أن مفتاح صنبور المياء الساخن فى الحمام قد نزع مقبضه ، وبقى من غير مقبض ، فإذا احتجت أن تحركه ، فعليك أن تذهب لأحضار المقبض .. إلا إذا كان معك مفاتيح عجل عربيتك ووجدت مفتاح ٨ أو ١٠ يفتح لك الصنبور ...

* * *

تحاول أن تشترى بعض الفاكهة فيبيع لك الفكهانى ٨٥٠ جرام على أنها كيلو ، يحكى أن أحد المصريين حاول مرة أن يجادل الفكهانى فى ذلك وكان

الفكهانى فتاة ، فأخرجت له الخنجر .

لست ضد إيطاليا ، ولكنى لاأستطيع أن أترك كل هذه الظواهر ، ولا يستطيع غيرى أن يتركها من دون أن يخرج بحكم ما على الإيطاليين ، مع كل الإحترام للحضارة والجمال وللنظام .

* * *

على أن الحق يقتضينا أن نذكر الجهد المشكور الذى تقوم به حكومة إيطاليا فى صيانة الطرق من آن لآخر ، وقد أتيح لى أن أعود من المؤتمر إلى نابولى فى طريق معبد يشهد بكفاءة هذه الحكومة فى صيانة الطرق وتعبيدها والحفاظ عليها .

كلمات كثيرة من لغتنا تجدها هنا فى الإيطالية ، الجيلاتى . وقفت كثيراً أشرح للبائعة أنى أريد ذلك الكوب من الآيس كريم فلاتفهم فلما رأيت على لافتة الأسعار كلمة جيلاتى قلت لعلنا أخذنا الكلمة من الطلاينة ، فقلت جيلاتى ، فتهللت أسارير البائعة .. فلما ناولتنى كوب الجيلاتى ، وجدته أقرب مايكون إلى الجيلاتى المصرى البلدى المصنوع فى المحلات الصغيرة وعندئذ أيقنت أننا من مصر لم نأخذ كلمة الجيلاتى من إيطاليا فحسب ولكننا أخذنا الجيلاتى نفسه . وتمنيت لو أننا كنا أخذنا الآيس كريم الأمريكانى أو حتى الأنجليزى أو الألمانى .

كذلك كلمة كابنية '' للدلالة على دورة المياه '' ، ومما لاشك فيه أن دورات المياه عندنا إيطالية التكوين والوظيفة حتى اليوم .

* * *

أحدثك عن أعضاء المؤتمر وسوف أحاول أن يكون هذا فى تقديرى حديثاً يصور لك بيئة هذه البلاد الإجتماعية من خلال شخصياتها وأسرها بقدر المستطاع .. فلنبدأ بالأساتذة المحاضرين ، أول هؤلاء هو الرئيس الدكتور مالينوف ، وهو أستاذ فى معمل أمراض القلب والأوعية ، فى مركز أرجون للبحوث ، بالإضافة إلى أنه أستاذ فى جامعة أرجون للعلوم الصحية فى بورتلاند ، والأستاذ مالينوف رجل هادىء الأعصاب ، يقود الجلسة من الجلسات التى يتولى

رئاستها ، فتحس به كالنسيم ، يقدم الأستاذ من المحاضرين تقديماً مختصراً ولكنه يحوى من معانى التقدير الكثير ، أسئلته لغيره ذكية واضحة محددة ، قد يكون فيها فتح أبواب جديدة للبحث أمام المحاضر نفسه ، ولكن تعليقاته أقل ذكاء ، أما إجاباته فمختصرة ، إذا لم يكن قد بحث فى ذات الموضوع ، فعنده : لاأعلم ، وبهذا فقد أفتى ، كانت تصحبه زوجته ، وكنت لاتراها إلا بلباس البحر ، صباح مساء ولم أكن أدرى عن حكمتها ووعيها شيئاً إلى أن جلست إليهما ذات عشاء فى اليوم الخامس ، تحدثت عن مأساة التدخين ، وكيف أنها مفزوعة لأمر أوربا ، واليونان بالذات التى عادت منها لتوها ، فخمسة وسبعون فى المائة من الناس يدخنون وبشراهة ؟ كيف يعيش شعب بهذه الطريقة ! .

الدكتور مالينوف وزوجته من أصل أرجنتينى ، والأصل الأرجنتينى فيه أصول أو فروع إيطالية ، وعاشا فى شبابهما بالقرب من الإيطاليين فى العالم الجديد ، ولهذا فإنهما يستطيعان الحديث بالإيطالية إلى جانب الإنجليزية والفرنسية والأسبانية التى هى لغة الأرجنتين .. أما إبنتهما الكبرى (٢٩ عاماً) فتتحدث خمس لغات ، لأنها تعلمت بالإضافة إلى لغات والديها اللغة الألمانية ، وأما ابنهما الأصغر (٢٥ عاماً) فيستطيع أن يكتب بالعربية ، تعلم الكتابة بها (على الآلة الكاتبة) من أحد أصدقائه العرب الذين يدرسون الاقتصاد فى لوس أنجليس .. وأما ابنهما الأوسط (٢٧ عاماً) فيدرس الطب ، وقد حصل على منحة فى نيويورك تهىء له الحصول على الدكتوراه .

* * *

أما الدكتور بلاتون ،دينامو المؤتمر ، فهو أستاذ تحليلات كما يسمون أنفسهم فى مصر تماماً ، وله معمل للكيمياء الأكلينيكية فى بلجيكا ، والدكتور بلاتون دينامو من النوع الهادىء ، كثير الحركة نعم ، ولكن فى هدوء ، واتزان ، مع أنه الوحيد الذى وصل قبلى إلى ماراتيا إلا أنى لم يتح لى أن أراه إلا فى الجلسة الأولى ، وكان يجلس وراء البرجكتور يحرك الشرائح للأساتذة المحاضرين كلما سألوه ذلك ، ولم يكن فى أدائه لهذه المهمة ينجو من أن يشرد بحيث يعيد

عليه الأساتذة طلب الشريحة التالية .

ولم يكن الدكتور بلاتون يهتم بهندامه على الإطلاق ، ولم أكن أدرى السر وراء ذلك وكنت أظنه عزباً ، إلى أن إجتمعنا على المائدة مع الأستاذ ويسلر وزوجته وسألته السيدة الأمريكية هل زوجتك لن تحضر ؟ وكانت تعرفها فأجابها أنها ستحضر يوم الخميس ، إن المشكلة أن عندنا خمسة أطفال !! أكبرهم عمره ١٧ عاماً وأصغرهم عنده ٥ أعوام ، وهذا سيدخل المدرسة هذا العام ، ولابد أن تبقى حتى يبدأ فى المدرسة أسبوعه الأول ثم تحضر يوم الخميس .

حتى كان يوم الخميس صباحاً ، وجدت بلاتون على حال غير الحال ، وجدته مبتسماً لامع الوجه والذقن ، وغاب عنا فترة الظهيرة ، ثم عاد فى المساء بزوجته .

اسمع معى تعليقات السيدات (والسيدات هم السيدات فى كل مكان حتى لو كن زوجات أساتذة الطب الأمريكان) .. ياحرام .. خمسة أطفال .. إنى كنت أستكثر الإثنين .. إنى كنت أظن الثلاثة مشكلة .. حسناً أنا عند ى أربعة ولكن حياتى ذهبت أدراج الرياح .. من أطراف مثل هذا الكلام علمت أيضاً أن السيدة بلاتون صيدلية ، وأنها تملك صيدلية فى بلجيكا إذن فهى تربح كثيراً وإذن فلا بأس أن يكون عندها هذا العدد ! ولكن ياحرام !! .

حذرتنى واحدة من هؤلاء السيدات أن أفعل هذا الذى فعله بلاتون وزوجته ، ثم بعد ثلاث دقائق أردفت إلا عندما تصبح طبيب قلب لامعاً فى الأنجيو (Angio cardiography) عندئذ لابأس خمسة .. ثماينة ! .

مأساة أمر هاتبك الحريم فى تفكيرهن ، وملهاة أن تستمع (بأذنك فقط) إلى حديثهن .

* * *

أما النجم الحقيقى فى الندوة كلها فهو الأستاذ أزمان من مونستر بألمانيا الغربية ، وقد جاء الأستاذ أزمان لتوه من ندوة نظمها لمجموعة من العلماء الأوربيين فى '' البروتينات الدهنية '' وهو أبرز علماء هذه المجموعة اليوم . هذا بالأضافة إلى أنه نشر فى العامين الأخيرين كتابه عن '' تصلب الشرايين ''

وقد نشره فى الإنجليزية والألمانية ، وطبع فى كل من الطبعتين عشرة آلاف نسخة كما أخبرنى عندما تجاذبنا أطراف الحديث فى قضية النشر العلمى .

جاء الدكتور أزمان إلى نابولى بالطائرة ، ثم استأجر سيارة ، وسأل عن الطريق فأخبروه (الطليان الطليان طبعاً) أن يسلك الطريق المؤدى إلى روما ، فصدع بأمرهم حتى اكتشف خطأه بعد ثلاثين ميلاً كاملة ، دخل علينا فى عشاء الأحد فقام إليه كل من كانوا معى على الطعام من الطليان يرحبون به ، وأخبرونى بقيمته العلمية ومكانته فى مجتمع المشتغلين بأبحاث تصلب الشرايين .

كان موعد محاضرة الدكتور أزمان فى اليوم الثانى ، وألقى محاضرة الصباح فأمتع ، وأجاب على كل الاسئلة ، وأظهر تمكناً واسعاً وعميقاً بالإضافة إلى لغته الإنجليزية التى كانت تفوق فى مخارج ألفاظها لغة الأساتذة الأمريكان (على الأقل فيما يتعلق بأذنى التى تود لو استمعت إلى المخارج واضحة لتفهم باللفظ والمعنى لا المعنى والسياق فقط) .

أما الدكتور أزمان فى محاضرات اليوم الأول ، فحدث عنه ولا حرج كله أذن صاغية ، وحواس واعية ، فكان يسأل السؤال فى أدق التفاصيل ، وبمقدمة طويلة تحس معها أنك تنتهى إلى أن يحدد الأستاذ المجيب خطأ واضحاً ينبغى أن يكون واضحاً فى التفكير العلمى .

ولم أكن مذهولاً من هذه القدرة عند الأستاذ أزمان ، لأنى كنت أعتقد أن السر فيها هو تأليفه لكتابه الأشهر عن قريب ، وحين يكون المرء فى مثل وضعه ، فإنه يكون ملماً بالآراء المختلفة حتى فى النقاط الصغيرة ، لأنه — إذا كان آخذاً أمر التأليف بأمانة — يكون مؤمناً أن عليه أن يعنى ويعى كل حرف من حروف كل كلمة يضمها كتابه ، وهذا يقوده إلى البحث والتمحيص .. وإنى أؤمن حقيقة أن التأليف هو قمة التعلم ولهذا كنت أغبط الدكتور أزمان ، ولم أكن مذهولاً من هذا القدر من الثقة والانطلاق الذى كان فى كلامه وسؤاله ، وإن كنت مقدراً .

ثم إن الدكتور ازمان فى محاضرة المساء من اليوم الثانى ، أسرع بالبداية وطلب إلى زميله الذى كان قد أخذ مكانه على المنصة ، أن ينتظر حتى يلقى

هو محاضرته لأن عليه أن ينصرف مبكراً لمتابعة حالة أعضاء المؤتمر الذين أصيبوا بالاضطرابات الهضمية إثر وجبة الغداء ، وأخذ يلقى ، ثم جاء إلى موضع من الكلام لم يكن يوحى بأنه انتهى ، وقال هنا أستطيع أن أعتذر ، وانصرف .. قادنى هذا التفكير فى حال الألمان ، لاينحدر بهم الخط البياني ، إنما يأتيهم الانقطاع وهم على نفس الخط الذى هم عليه ، يأتيهم الانقطاع فجأة ، فلاترى أثراً لهذا الذى لم ينبىء بأنه سينقطع .

ثم إن الدكتور أزمان كعادة كل النجوم أختفى بعد ذلك فلم نره حتى تركت المؤتمر . هذه هى عادة النجوم فى العلم وفى الفن وفى الأدب وفى النجوم والكواكب نفسها .

* * *

أحدثك بعد هذا عن الرجل الطيب ، العالم الكبير الدكتور '' أوسلر '' ، وهو ذلك الأستاذ الذى سألت عن اسمه إستعلامات التليفون فى شيكاغو ، فردت علىَّ الموظفة برقم تليفونه فى زهو أن عندهم هذا الأستاذ !! فى خلال ثلاث ثوان ، الدكتور أوسلر حلق شعره على الزيرو (كما نقول) ، وأطلق الجزء الأوسط من لحيته البيضاء الوقور . نظراته فيه الطيبة كلها ، ولكن نظراته إليك تجدها ممتلئة بالإحترام والتواضع والتقدير ، التواضع الشديد ، قمت له مرة ، فسألنى بكل الصدق ألا أقوم له بعدها ، الأستاذ أوسلر هو أكثر أساتذة المؤتمر قدرة على المحاضرة ، لم أشرد منه فى أى محاضراته لأكثر من دقيقة ، لاأظن ، بدأ محاضرته الأولى بقوله إننا هنا نفتح الأبواب بين العلماء .. بين الأبحاث .. بين المدارس .. بين الأوطان .. ثم روى لنا قصة طريفة عن فتح الأبواب ، ثم انطلق ، اعترتنى الدهشة لمَ لم يجعلوا محاضرة الأستاذ أوسلر أولى محاضرات الندوة بدلا من أن تكون الثانية ! .

للأستاذ أوسلر كتابان قيّمان عن تصلب الشرايين ، بمشاركة غيره من العلماء الأمريكان ، والكتابان منتشران على أوسع نطاق فى المدارس العلمية الأمريكية ، ومع هذا عندما ذهبت إليه أسال عن الكتاب الذى يمثل الكتاب الأول فى تصلب الشرايين (صغر حجمه وإلمامه بالموضوعات وحداثة محتوياته

وشمول الموضوع) قال بلا تردد : كتاب أزمان . كنت أسأله ليدلنى عل أحد كتابيه ، أو على كتاب ثالثا لأعرفه ، فوجدته يقول كتاب أزمان ، فقلت له كيف ، فأخذ يمدح فى كتاب زميله وفى زميله ويثنى ، قلت له ولكنك لك كتاب . قال نعم ولكنه يعد بالنسبة إلى كتاب أزمان قديماً ، ثم أخذ بيدى ، وانتهز فرصة أول أستاذ قابلناه ، فسأله سؤالى من دون أن يقول له إنه إختار كتب أزمان ، فأجاب الأستاذ الآخر بمثل إجابته ، عندئذ طفح وجهه بالبشر وأخذ يواصل الثناء على كتاب أزمان .

لم يكن الدكتور أوسلر يكف عن تشجيعى عل أن نكتب وتدرس الطب بالعربية على أن الذى كان يفوقه فى ذلك هو الدكتور دبير الإيطالى .

* * *

كان الأستاذ وبير الإيطالى يحدثنى عن مشكلات التعليم الطبى فى إيطاليا ، كما لو كان الذى يحدثنى هو أستاذ مصرى عن مشكلات التعليم الطبى فى مصر ، فهم أيضاً قد أطلقوا المجانية ، ولكن بلا معنى إلا أن يأتى الطلبة الأمريكان ليدرسوا الطب فى إيطاليا الرخيصة . يدرسون بالإنجليزية والطلبة لايفهمون والنتيجة أن عشرين فى المائة فقط من الخريجين هم الذين يفهمون الطب ، عشرون فى المائة هل هو رقم كبير ؟؟ ، أخذ يراجع نفسه لأنه كان يؤمن أن الحقيقة أقل من ذلك والأستاذ دبير وهو أستاذ التشريح والباثولوجيا الهستولوجية لايقل تواضعاً عن الدكتور ويسلر ، ممتلىء الجسم ، شعره يشوبه بعض الإبيضاض ، يقوم بمهمة الأستاذ بلاتون فى تجريك الشرائح إذا ما رأس الأستاذ بلاتون الجلسة أو انصرف لأمر من أمور الإدارة أو كان هو المحاضر ، تطالعك منه فى الصباح وفى الظهيرة وفى المساء إبتسامته العذبة الرقيقة الواسعة التى تنم عن صفاء نفس ، وشفافية روح ، ولم يكن من حظى أن أتحدث إليه كثيراً ، ولكن الدقائق القليلة فى المرات القليلة التى جلسنا فيها إلى بعضنا كانت من حظى السعيد .

* * *

وأما الأستاذ كلاركسون من مقاطعة شمال كارولينا ، فرجل أنيق ، وسيم

الوجه ، مكتمل العافية على مايبدو من بنيانه ، ولكنه مع ذلك يدخن الغليون ، (أو مع أنه يدخن الغليون) وكان كثيراً ماينصرف إلى آخر مقعد فى قاعة المحاضرات حتى يخلو إلى غليونه ، ويتأمل المحاضرين والمحاضرات عن بعد ، ولكن ببعد نظر .

أجرى الدكتور كلاركسون وهو أستاذ الطب المقارن ومدير أبحاث تصلب الشرايين فى جامعة ديك تورسلت (ونستون سالم) بحوثاً عميقة على القرود الراقية قريبة الشبه بالإنسان لمدة طويلة من الزمن ، وعلى أنواع عديدة وأعداد كبيرة تستحق التقدير ، وخلص من هذه الأبحاث إلى كثير من النتائج الهامة التى أكسبته احترام زملاءه جميعاً .

وقد حاضرنا الدكتور كلاركسون خمس مرات ، مرتان يوم الأربعاء ومرتان يوم الخميس ومرة يوم الجمعة .

كانت محاضرته الأولى عن الباثولوجيا المقارنة لتصلب الشرايين فى أنواع (الراقيات) وكانت محاضرته الثانية عن كميات إصابة الشرايين فى الحيوانات والثالثة عن تراجع تصلب الشريان التاجى فى الراقيات غير الإنسان . والرابعة وهى أمتعها عن خبراته فى المشكلات المتعلقة بالطرق غير الغزوية (Non Invasive) الخاصة بتقدير درجة تصلب الشرايين . أما فى محاضرته الخامسة والأخيرة فكانت عن الجيلكوسيدات النباتية وتراجع الإصابة بتصلب الشرايين فى الحيوانات .

* * *

هل لنا أن ننتقل من الحديث عن الأساتذة الأمريكان إلى أستاذين إنجليزيين ، فيهما سيماء العلم الإنجليزى ، العقلية التحليلية التى تعمد إلى حقائق العلم مباشرة تحليلاً دقيقاً لجوانبها ، والبحث فى العوامل النسبية ، للإثبات أو للنفى .. كانت هذه العقلية واضحة جداً فى الأستاذة سميث من الشمال فى أبردين وهى أستاذة فى الباثولوجيا الكيميائية ، وفى عقلية الأستاذ والتون وهو باثولوجى كبير فى جامعة برمنجهام ، وقضى أول أيام عمله فى الحرب العالمية الثانية فى الهند فى كثير من المناطق التى أتيح لى أن أزورها .. كان الأستاذ

الأنجليزى مصحوباً بزوجه وكانت الأستاذة الإنجليزية مصحوبة بزوجها .

حدثنا الأستاذ والتون فى أول محاضرة عن '' تطور الإصابة بتصلب الشرايين '' ثم حدثنا فى المساء عن '' إحتمال التعرف على تراجع تصلب الشرايين فى الإنسان '' .

* * *

ومن ألمانيا الغربية كان هناك زميلان كانت الدكتورة (كوبك) قد جاءت من دسلدورف كانت ثيابها ومشيتها ونظراتها وتعبيرات وجهها كالعسكريين الألمان تماماً ، ولكن مناقشتها وردودها على الاسئلة التى وجهت إليه عقب المحاضرة الإضافية التى أتاحوها لها ، كانت أشبه بطريقة الدبلوماسيين المحنكين الذين يتركون الأبواب مفتوحة دائماً. حدثتنا عن دراستهم للأطفال اليابانيين فى منطقة دسلدروف ، وهى المنطقة الصناعية الأولى فى ألمانيا ، والتى فيها أكبر عدد من هؤلاء الأطفال ، وكيف يعيش هؤلاء فى بيئة غير بيئة آبائهم حيث السمك هو الغذاء الرئيسى ، وكيف يكون التركيب الكيمائى للدهنيات ونسبها فى دمهم وعلى الرغم من الجهد الكبير الذى بذلته الدكتورة فى دراستها إلا أن الأساتذة لم يرحموها من التعليقات . ولم يكن طابع هذه التعليقات إلا مثل تلك التى يلقيها الأساتذة فى مناقشة الرسائل والأطروحات العليمة .. هل لاحظت الفرق بين هذه النسب فى الصيف والشتاء ؟ لأن فواكه الشتاء فيها نسبة أكبر من السكريات ! ، هل تلاحظين قيمة الفرق بين الذكور والإناث .. إلخ .

* * *

أما زميلى الألمانى من هايدلبرج ، فقد جاء بالقطار ، ويعتزم العودة به وقد درس العلوم حتى حصل على الدكتوراة فى فلسفة العلوم (Ph D.) فى الكيمياء الحيوية ثم هو يعمل الآن فى قسم الأمراض الباطنة .. لم يتزوج ولم يفكر بعد فى الزواج ، كان كثيراً مايخلو إلىّ ليحدثنى عن غرائب الطليان .. كان من الشباب لانقول المستهترين ولكن الذين يتركون الأمور تسير كما يحب لها من يسيرها . وكان من عادته أن يذهب كل عصر فيأخذ حماماً بعد حمام السباحة ثم يعود ويأخذ حماماً فى الحجرة .. كان يبكر فى نومه على عادة

الألمان فإذا أصابنى القلق إضطررت للبقاء خارج الحجرة مع الناموس ينهش لحمى .. لم يكن كثير الترتيب والتدبير إنما (متوكل على الله) .. حقيبته ضخمة ولكنه لم يستعمل منها إلا ربع ما فيها أو أقل .. والباقى إحتياطى على عادة الألمان .

* * *

من بلجيكا أستاذة وتلميذها ، وفتاة ، كان الجميع يأسفون لخالها ..فهى عروس تزوجت منذ يوم أو يومين ، وكان عليها أن تحضر هذه الندوة فى الوقت الذى يحضر زوجها الدكتور ندوة أخرى فى بلد آخر ، ثم يلتقيان بعد أسبوع فى اليونان ليقضيا شهر العسل أو شيئاً من هذا القبيل . كل هذا جميل ولكن المأساة أنها جاءت مع الخطوط الإيطالية حتى روما ، فلما جاءت إلى حيث استلام الحقائب لم تجد حقيبتها ، وكانت والدتها – على حد رواية زوجات الأساتذة الأمريكان – قد وضعت لها فى هذه الحقيبة كل ملابسها التى تساوى شيئاً كبيراً ، فهو شهر العسل ... (واسمع أوصاف السيدات لشهر العسل) .. ومضى اليوم الأول والحقائب لاتجىء ، والثانى حتى المساء فجاءت عاملة التليفون فى الفندق التى أوصاها الجميع بالموضوع تقول إن الحقائب وصلت وسترسلها شركة أليطاليا بالقطار ، وتسأل فى محطة القطار ، لم يصل شىء ، إلى أن كان يوم الخميس وذهب الأستاذ بلاتون لاستقبال زوجته وأحضر الحقائب معه .. لاتسل من أين أحضرها ، وإنما اسأل عن الفرحة التى عمت الجميع لأمر هذه الفتاة المسكينة الى إضطرت فى أول ليلة لها أن تغسل ثيابها الخفافى (السفارى) التى أتت بها ، لتجف حتى الصباح ، ثم لبستها . فلما كنا فى نزهة القارب البحرى ونزل الجميع يسبحون ، بقيت هى والعبدالله على الشاطىء ، أما العبدالله فكان له من ساقه المصابة عذره ، وأما هى فكان على أليطاليا وزرها ، وعزَّ على الأستاذ مالينوف ألا تسبح الفتاة الشابة صحيحة الجسم وتتمتع بهذا الماء معتدل الحرارة ، فشجعها على أن ترمى نفسها فى الماء بالثياب التى ليس عندها غيرها ، على أن يعطيها هو ثياباً من عنده (أو من عند زوجته) عند رجوعنا ..ولم تكذّب خبراً كما يقولون ، وضعت سلسلتها وساعتها فى

حقيبة يدها وتركتها على صخرة وإنطلقت .. فلما عادت إلى المركب وقضينا ساعة حتى عدنا كانت ملابسها قد جفت فلم تعد بحاجة إلى ملابس الدكتور مالينوف . فلما أتى وقت العشاء وكانت حقيبتها قد عادت مع الدكتور بلاتون لم تعد فى حاجة كذلك إلى ملابسها التى جفت وانما ذهبت ثم عادت فظهرت علينا فى أبهى حُلة !! .

* * *

أما الشاب الهولندى فقد إنتهى لتوه من الماستر فى علم الحيوان . لغته ضعيفة جداً ، كثير الغمز بعينه ، رفيع كالهولنديين ، لونه أبيض على أصفر ، ولكنه خفيف الدم يقول عن أستاذته إنها تعمل أشياء كثيرة جداً .. سرحان .. يكمل دراسة الطب على نحو ما يسمى عندنا ببكالوريوس الطب بع بكالوريوس التشريح الفسيولوجيا ، النظام عندهم تقريباً له بعض خصائص النظام الأمريكى .

* * *

الباب الرابع : **بريطانيا**

أروع ماكان فى تلك الطائرة الإنجليزية التى أقلتنا من روما إلى لندن والتى لم يكن بها كرسى واحد خالٍ ولاشيئاً من تلك الأشياء التى قد تجذبك إلى هذه الشركة التى أركب طائرتها للمرة الأولى بعد ثلاثين رحلة أو أكثر بطائرات أخرى قبلها .. أقول هو ما أتيح لى من مشاهدة سويسرا كلها على الطبيعة الحية المعبرة .

هل ترى جبال سويسرا يتوجها الجليد الأبيض فوق لونها الرمادى بدرجاته المختلفة على درجاتها المختلفة ثم بين الجبال الشامخة الوادى لانقول الفسيح كوادينا ولكن الضيق الأخضر وفى وسطه شريط الماء الأبيض المتلالىء .. هل ترى هذا المنظر على اللوحات التى تنتشر فى مكاتب السياحة السويسرية ؟ أو فى سويس إير .. هذا ماأتاحته لنا الطائرة الأنجليزية ظهر ذلك اليوم الصافى من الغيوم .

ماكاد الطاقم يلمح هذا المنظر الجميل ، إلا وزفوا لنا فى أرجاء الطائرة هذا النبأ السعيد ، وانصرفت إلى فراغٍ خلف المقعد الأخير فى القسم الأوسط من الطائرة ، وقد خزنوا فى هذا الفراغ بعض الأغطية اتخذت منها مقعداً وإنصرفت أنظر وأنظر ، هذه هى متعة النظر الحقيقية نصف ساعة أو تزيد .

قالت لى السيدة الأمريكية التى كانت تجلس إلى جوار زوجها فى المقعد الذى أمامى .. إنه يوم خاص بك ياسيدى .. كانت كثيرة السفر ، ولم تسعد بهذا المنظر أبداً !! فالعادة أن تكون الغيوم والظلام . لم يفتأ الركاب يخرجون كاميراتهم ويلتقطون المنظر يسجلونه على أفلام ملونة أو غير ملونة ..وأظن أنى خزنته على مؤخرة مخى ولم أستطع أن أطبعه على هذا الورق .

* * *

لاينبغى أن أهمل الحديث إليك عن هذه الفكرة الفنية الجميلة التى سادت عقل مصمم الديكور فى مطار لندن حين جعل على الحوائط نماذج من الزخرفة فى بلاد العالم المختلفة : فى العصور المختلفة فى اليونان حول الميلاد ، وفى مصر قبل التاريخ ، وفى المكسيك فى القرن ... ، وفى أسبانيا الأندلسية ، وفى فرنسا فى القرن السابع عشر ، وهكذا تتوالى أمام عينيك الناظرة إلى الحائط على

جنب وأنت تسير على الممر الكهربائى المتحرك نماذج معبرة عن الحضارات المتتالية عبر الزمان على الأرض التى عمرها الله بالإنسان .

ولكن الشىء الذى قد لايعجبك فى جزء آخر من مطار لندن هو تلك الأختام المختلفة التى رسموا صور ختمها على الحائط .. هل لأن الختم يرتبط فى ذهننا بالروتين الذى لايعجبنا ، والقيد الذى لابد لنا منه لنحصل على حرية الحركة فى أمر ما ؟ لا أعرف ..

أما قولهم إن مطار لندن هو مطار العالم فأمر قد لا يستدعى المناقشة ، وحق له أن يفخر بنفسه ، وإنى لأعتقد أن من خير الأمور أن نبعث بطلاب الهندسة (وليكن فى المراحل المتقدمة من دراساتهم) إلى مثل هذه المنشآت الواسعة الشاسعة معقدة التركيب ، ولنتركهم يتأملون فيها اليوم بعد اليوم ليحللوا كيف تتكون مثل هذه المدن المتكاملة . نعم إن مطارات العالم الحديثة فى أوربا وأمريكا وفى الخليج العربى ليست إلا مدناً متكاملة ... ولقد قرأت على إحدى الحوائط أن مطار هيثرو سيكون له طرف رابع (Terminal 4) بعد كذا عام ، وأن هيئة المترو تعتزم أن تسيّر المترو إلى هذه النهاية ، وتعتزم أن يكون ذلك مواكباً فى الوقت لإفتتاح الطرف الرابع من المطار ، ولهذا فهى تعتذر للناس عن الإزعاج الذى قد تسببه لركاب المترو فى وقت معين من آخر الليل (فقط) حين تطلب إليهم أن يتركوا محطة كذا إلى محطة كذا ليتيحوا العمل فى جسم المترو فى هذه المسافة فى تلك الفترة ، وسوف تكون فى إنتظارهم أتوبيسات تقوم بخدمتهم فى هذه المسافة ، من غير تضييع لأى وقت ، ولاتحميل لميزانية وقتهم أو جيوبهم بوقت أو أجر إضافى .. هل تملك بعد ذلك إلا أن تدعوا لهم الله أن يوفقهم ويرزقنا النجاح .

على أن مايسعدك من أمر مترو لندن أن مساحة الإعلانات على جدرانه الداخلية كلها مشغولة ، وأن ليس هناك فراغ على الإطلاق ، على غير ماتجد فى مترو واشنطون على سبيل المثال !!. ولا تظن أن مترو لندن قد وصل إلى هذا التشبع بكثرة المعلنين ، مع أنه لاشك فى ذلك ، ولكن جانباً من إعلانات مترو لندن ليست إعلانات مدفوعة الثمن ، إنما هى خدمة إعلامية من هيئة المترو

التى تحدثك عن أن الحرامية يحبون الزحام فخذ حذرك .. أو أن .. إلخ .

أما أغلب الإعلانات فى مترو لندن وفى مطار لندن فهى عن السوق الحرة وألطفها هوذلك الذى يقول كيف تهرب من الضرائب بطريقة قانونية ؟؟ الجواب : السوق الحرة . فزجاجة الخمر لاتزال ٢,٩٩ إسترلينى . هذا هو الإعلان بحروفه .

* * *

مقاطعة كمبريا " Cumbria " لم توجد إلا منذ سنوات قليلة ، بإتحاد أجزاء من ثلاث مقاطعات ، وهى تمثل شمال إنجلترا على حدودها مع أسكتلندا ، (فى إطار بريطانيا العظمى) إذن فكمبريا هى أقصى شمال إنجلترا من ناحية الغرب .

وإلى اليوم لاتزال نسبة الكثافة السكانية فى هذه المنطقة منخفضة ، فليس هناك شىء ذى قدر كبير من الموارد الطبيعية ، ولا الصناعات الكبرى فى المنطقة ، ومع هذا فإنك لاتستطيع أن تحكم بأن هذه منطقة فقيرة ، أو أن ليس أمامها مستقبل فجوها المعتدل إلى حد كبير بالمقارنة بأجواء أخرى ، وماحباها الله به من طبيعة وبحيرات وجبال ترتفع بين هذه البحيرات المتوالية ، كل أولئك رصيد ضخم لمستقبل كمبريا على الرغم من هذه الأجواء التى تنتشر عن عجز بريطانيا بسبب الفقر عن الإستثمار المتسع فى المستقبل .

من الضرورى أن تعرف أن هناك كمبريا أخرى فى ويلز ، ولكن الفرق بين الإثنين فى الحرف الثانى فكمبريا الشمال (u) أما كمبريا ويلز (a) = Cambria .

* * *

قطعان الأغنام تنتشر هنا فى المراعى ، وتقوم تبعاً لذلك صناعة الصوف اليدوى أو ذى التكنيك الصناعى البسيط (أى صناعات منزلية صغيرة) وهم هنا يسمون الأغنام بأسماء مختلفة تبعاً لأطوار حياتها البيولوجية كما يفعل العرب بقولهم كبش وفحل .... إلخ ، والصحة والعافية والإمتلاء هى السمة الغالبة على أغنام كمبريا .

على أنه من الطريف أن نذكر لك أن مجموعات من السكان الذين يقطنون هذه المنطقة والذين يقطنون أسكتلندا أعلاها ، لايزالون إلى اليوم يعيشون فى مجتمعات منعزلة عمن حولهم ، يتكلمون لغاتهم المحلية القديمة التى تنتمى إلى اللغات الإسكندنافية ، وقد حاولت الحكومة ولا تزال تحاول مراراً أن تثنيهم عن هذا وأن تساعدهم على الاندماج فى اللغة الإنجليزية ، ولكن دون جدوى !! هؤلاء هم الأنجليز الذين لايتكلمون الأنجليزية !! .

فى كمبريا أكبر الحدائق القومية (National Parks) الموجودة فى كل إنجلترا ، وهى عشرة حدائق قومية تمثل ٩٪ من مساحة الدولة كلها ، وقد ذهبت لزيارة هذه الحديقة ، وإطلعنا على التاريخ القومى لإنشاء هذه الحدائق وعند ذاك لايسعك إلا أن تحنى رأسك بالتقدير لعقليات العلماء الانجليز المستقبلية التى تنبهت إلى أهمية هذا الطراز من حماية البيئة منذ هذا الزمن البعيد (هذا من دون أن تحزن أو تبتأس من أننا لاننجح حتى اليوم فى صيانة حدائق الحيوان والأسماك والأورمان للنبات التى ورثناها جميلة زاهية) .. على أنهم وصلوا إلى تعريف الحدائق القومية عام ١٩٤٤ ، وهوالتعريف الذى تجده منسوباً إلى صاحبه مكتوباً على لوح من الخشب بين ألواح كثيرة فى صدر القاعة المركزية فى مدخل الحديقة التى تضم قاعات للسينما تحكى تاريخها وأهميتها ، وتُذَكِّر دائما فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، ومركزاً للهدايا التذكارية اللطيفة تشترى منه ما يذكرك دائماً بهذه الزيارة ، ومع هذا فإن هذا المركز فى حد ذاته يدل دلالة عميقة على أهمية الثقافة فى حياة الإنجليز ، ففيه ركن كبير للكتب (كتب التسالى بالطبع) ولكن النسبة الغالبة كتب علم وكتب ثقافة علمية ، وموسوعات فيها الطيور مرسومة ومسماة عليها نبذة تتيح لك أو لأبنك كل المعلومات الأساسية عن الطائر ، أو عن الحيوان فى كتاب الحيوان ..إلخ ، موسوعات مبسطة مرتبة تتيح للعقل الصغير أن ينمو وهو يعرف الترتيب والتقسيم بالإضافة إلى المعرفة الأصلية وكل هذا بالإضافة إلى المتعة الحقيقية مع كتاب هو تحفة فنية بالإضافة إلى متعة الاقتناء !! ، متعات فوق متعات بثلاثة أو أربعة جنيهات هى ثمن وجبة طعام بسيطة على منضدة فى الناحية الأخرى من ركن الكتب

أو ثمن خمسة أو عشرة كروت بوستال !! .

هل الثقافة إذن وظيفة وزير الثقافة أو هيئة الكتاب ؟ أو هيئة الآثار ؟ أو المجلس الأعلى للثقافة ؟ أم هى وظيفة كل فرد من أفراد المجتمع يسند إليه ركن من أركان المجتمع ؟ ويبقى السؤال مرهوناً بالفرد ؟ .

* * *

أما هذا البلد الذى فيه المعهد '' جرانج اوفر ساندز '' فبلد صغير ولم يأخذ وضعه كبلد إلا منذ عهد قريب ، وأطرف مافيه هو شكل الهرم السكانى (على حد تعبير علماء الديموجرافيا) فكبار السن فيه هم الأغلبية الساحقة لأنه يتكون أساساً من أولئك المحالين إلى التقاعد من العاملين فى المناطق الصناعية القريبة (مانشستر) ، الذي يرحلون إلى هذه القرية الهادئة ذات المناخ المعتدل وذات هذا الطابع السكانى اللطيف ، ومعدل الوفيات فى هذه القرية تسعة أضعاف معدل المواليد !! ، ومع هذا يأتى إلى هذا البلد كل عام قوم آخرون ..وهكذا فإن معدل الزيادة السكانية فيه ثابت ! وهو صفر تقريبا ! فمعدل الوفيات العالى لايستطيع معدل المواليد أن يعوضه ، ولكن يعوضه توافد السكان الجدد .

* * *

كان علينا أن نبحث بحكم ثقافتنا عن منظور جديد يمثل مستقبل البيئة فى الثمانينات ، ولم يكن هذا بالامر الصعب إذا ما تناولنا المسألة نقطة نقطة وأبدينا آرائنا فيها بأوراق عمل أو حتى بمناقشات مستفيضة أو ببحوث محددة الاتجاه ، ولكن الاستاذين الرئيسيين أكرمهما الله كانا قد وضعا لهذا الأمر خطة أخرى تستغل إمكانات العقل الالكترونى على أحسن ما يكون الاستغلال .

ومن دون أن أجعل القارىء يمل الكلام فى هذه المسألة التى قد لا تخصه على الاطلاق باعتبارها مجرد وسيلة تنظيم لمؤتمر عن مسألة فرعية جداً وهامشية جداً بالنسبة له ، إلا أن ضميرى يأبى علىَّ أن أتحدث عن كل ما تحدثت عنه وأترك هذه النقطة .

صمم الأستاذان المسائل على النحو الذى يجعل كل واحد منا يبدأ فيذكر المفاهيم التى يراها هامة فى البيئة والحياة البيئية كالعلاقات البيئية مثلا : بدءا

من الحب والكره ومرورا بالتكافل والتطفل والتزاوج ... الخ أو الخصائص المميزة للأجناس : كالطعام والشراب والتكاثر والهجرة .. الخ أو كالمقومات الأساسية للحياة .. الخ .

فإذا انتهينا على مدى ساعة ونصف من ذكر ما يزيد على خمسين ومائتين مدخلاً من هذه المداخل خرج علينا الكمبيوتر الذى كان يسجلها باسماءها مرتبة ترتيبا أبجديا ، ثم أخذنا ننظر فى أمر هذه المداخل ، وكيف يمكن لنا أن نصوغ التفاعلات بينها فى الحاضر والمستقبل .

كانت المسألة إذن أن نضرب كما يقولون أى عنصر بآخر ، فتتضح لنا من آفاق التفكير أو لا تتضح آفاق جديدة نسجلها .. ثم كنا ننفق الوقت بعد هذا فى تنظيمها بحيث تخرج لنا أفكاراً ممتازة ، وهو ما حدث بالفعل .

• • •

فإذا جعلت مدخل '' الهجرة '' يتفاعل مع مدخل '' التكاثر '' مثلا ، فإنك واجد أن الهجرة قد تكون من أجل التكاثر أو أن التكاثر قد يشجع على الهجرة كما يحدث اليوم فى عائلات مصرية ترحب باغتراب ابناءها إذا ما كانت فيهم وفرة . إلى آخر هذا من الافكار التلقائية التى قد تجدها تجيئك ، من غير جهد .. وفيها بالطبع كثير جدا من الافكار التافهة والأخرى التى قد تبدو تافهة !

ولم يكن هذا ليعوقنا عن الاستمرار فى طرح ما فتح الله به علينا من أفكار وتسجيلها على الفور ثم التأمل فيها بعد قليل لنصفيها .. ثم لنؤازر بين الافكار والافكار Integration حتى تخرج لنا بعض الصور العامة .

لم تكن المسألة بهذه السهولة قط ، وإنما هو تبسيط شديد جداً لما أتممناه من عمل أخذَ ما أخذ من وقت سبعة عشر أو ثمانية عشر عالماً (إذا جاز لى أن اعد نفسى واحداً) وقتا متصلا ليس فيه الا الجد الشديد .

• • •

على أن الذى لا يمكننى أن أنكره أن صغر سنى كان خير معوان لى على المكانة الممتازة التى تهيأت لى بين هؤلاء الافذاذ ، وبخاصة إذا علمنا أن الكمبيوتر كان يحتاج فهما سريعاً من المتعامل معه الذى ينبغى له إذا أراد أن

ينجح فى تعامله ألا يفرض على عقله نفسه أية مسبقات وأن يطيع الحقائق كما هى !

* * *

نجم مجموعتنا كلها رجل كله نشاط وحيوية وخبرة ومع هذا فهو فوق الستين ، الأستاذ جيفرس ، بدأ هذا العالم الكبير حياته كموظف بسيط فى الغابات ، لم يكن قد حصل على الدرجة الجامعية الأولى (البكالوريوس أو الليسانس) ، وعندما بدأ الكمبيوتر يأخذ طريقه إلى الحياة الدنيا ، كان من أوائل الذين اهتموا به ودرسوه وعملوا عليه حين كان أولئك الذين لهم هذه العلاقة بالكمبيوتر يعدون على أصابع اليد الواحدة ، وأحرز الأستاذ جيفرس تقدماً كبيراً فى هذا المجال ، وتأسس مجلس الكمبيوتر (أو جمعية الكمبيوتر) فكان من أعضائه البارزين ، وصارت الشهادات تمنح فى هذا التخصص الجديد ، وحصل جيفرس على هذه الشهادة ، التى اعتبرت فيما بعد مساوية للدرجة الجامعية ، ولم يكن من الصعب على مثل هذا الرجل بمثل هذه العقلية ، وهذه القراءات المتعمقة فى علم النفس والفلسفة وفلسفة العلوم والفكر الإنسانى أن يصل إلى القمة فى بلد لا يجعل الوصول إلى القمة مرهوناً بالدرجات الجامعية التى حصل عليها الفرد .. هذا بلد يتيح للخبرة والعقلية الممتازة أن تتبوأ مكانها المرموق لتبنى منه وتعلم الأجيال التالية ، ولكن هناك بلاد - نعرفها جيداً - تربط قمة الوظائف (بل قاعدتها) بالشهادات الجامعية ، وتسعّر الشهادات ، وترى أن فى هذا قمة العدالة بين العاملين ! ثم تنتظر منهم العمل !! ، بينما هم يظنون - ولهم الحق - أنهم قد أدوا أعمالهم منذ زمن بعيد ، حين ذاكروا وحصلوا على الشهادات التى تقاس بها مرتباتهم !! .

كان الأستاذ جيفرس هذا هو رئيس المؤتمر وكان رجلاً قصيراً ولكنه ممتلىء ، ولم يكن ممتلىء الجسم فحسب ، ولكنه يحظى بقدر وافر أيضاً من الصحة والعافية ، والذكاء ، والقدرة على المحاضرة وإدارة الجلسات ، بدأ اليوم الأول فى الصباح بثياب عادية ، حتى إذا جاء المساء كان فى أبهى حلة ، من دون أن تحس أنه غاب عن القاعة ، وهكذا كان ينتقل أيضاً بين الموضوعات

والأفكار ، يترك النقاش يحتدم ، بعبارة أدق يتوه حتى تحس أنه لابد أن يقوده الرئيس إلى نقطة معينة ، بعد إحساسك هذا بدقيقة أو بدقيقتين تجده يفعل مايجب أن يفعله الرئيس ، وهذه هى حنكة إدارة الجلسات ، نوع من الدكتاتورية الواعية الكامنة التى لاتظهر للعيان ، ولكن تهفو إليها القلوب ، وتتقبلها العقول .

كان جيفرس يدرك هذا من نفسه ، فكانت ثقته بنفسه من الأمور التى لاتحتاج إلى إثبات ولا تحليل ولاتعليل ، وحين كان يتكلم عن الجماعات والإجتماعات ضمن حديثه عن تنظيم الإنسان للأفكار والفلسفات ، جاء ذكر الإجتماعات ومجموعات العمل ، فذكر ماأبان عن أنه أجاد درس إدارة الإجتماعات نظرياً ، ولم تكن حكمته وحنكته وليدة التجربة فحسب .

تسألنى ماهو الفرق بين الحالتين ، أظنك تدرك الفرق بين المهندس الميكانيكى الذى يتولى أصلاح أمر السيارة التى عرف خباياها قبل أن يكون مهندساً ، وبين الميكانيكى الماهر صنعته هكذا ، فحسب ، ومهارته من صنعته فحسب .

* * *

أما الدكتور بيل هل الدينامو الحقيقى ومدير محطة المعهد ، فشاب تعدى الأربعين من عمره ، ولكنك لاتدرك ذلك السن من شكله ولا من نشاطه الظاهر ، طويل القامة ، مبتسم الوجه ، أوردته بارزة من تحت عضلات يديه ، ولكنه بروز أوردة الرياضين لابروز أوردة أصحاب النحافة ! ، جلد وجهه يميل إلى الحمرة ، وعيناه تميلان إلى الخضرة ، له إبنان أكبرهما فى العام الثامن عشر من عمره ، قُبل لتوّه ليدرس فى كمبردج لدرجة من العلوم ، رأيته مع والده فى أمسية اليوم الأول ، وهما يجلسان يحتسيان الشراب ، إندهش عندما سألته أهذا إبنك ؟ مع أنه لم يكن من الصعب على أن أدرك ذلك من شكل الأبن ، ولكن قد يكون من الصعب أن تدرك ذلك من جلستهما مع بعضهما إذا لم تكن عندك خبرة بأصول التربية الحديثة التى تقول مايعبر عنه مثلنا العربى فى أبسط وأبلغ صور التعبير '' إن كبر إبنك خاويه '' أو مايعبر عنه بأبلغ وأدق وأكثر عبارات اللغة تهذيباً قول رسول الله ﷺ ، ولم يكن من السهل أن تدرك أن لهذا العالم الشاب

كان نظام العمل يقتضينا أن ننتهى من إفطارنا قبل التاسعة ، حيث تبدأ الجلسة الأولى فى التاسعة تماماً وتستمر حتى العاشرة والنصف ، فننصرف بضع خطوات لتناول القهوة ، فإذا انتهينا من ذلك انصرفنا مرة ثانية فى الحادية عشرة إلى العمل حتى الثانية عشرة والنصف ، ونعود فى الثانية للعمل حتى الثالثة ونصف فننصرف بضع خطوات لتناول الشاى ونعود لنبدأ الجلسة الرابعة تماماً وهذه تطول حتى الساعة السابعة .. ثم نتناول العشاء فى السابعة والنصف وهو الوجبة الأساسية .

* * *

كان علينا أن نعمل كثيراً ، ومع هذا كان يتاح لنا طعام كثير ، لم نكن بقادرين على أن نبلع نصفه ، وكنت على طبيعتى السيئة فى التأفف من كثير جداً من أصناف الطعام ، ومع هذا كان يبقى لى بعد كل ماأرفض قدر كبير من البدائل التى تكفى حاجتى وتزيد ، وكنا فى بداية أيامنا نحاول أن نأكل ، ثم لما حادثنا بعضنا عن وفرة الطعام ، بدأنا نحس أنه يجدر بنا ألا نأكل ، حتى جاء الرجل المدير ذات صباح يسألنا عن طبق الإفطار الذى نريده (كان هذا بعد القهوة وبعد سلاطة الفواكه) فإعتذرنا جميعاً عن أى طعام إلا واحداً !! .

* * *

لاتستطيع أن تغض النظر عن ملاحظة أن الأنجليز يعانون من شىء من الفقر (الفقر النسبى طبعاً) أذا ماقارنتهم بألمانيا الغربية أو الولايات المتحدة الأمريكية ، تسطيع أن تلمس هذا فى حجرات فنادقهم وحماماتهم ، وأن تلحظ أن (الأطقم) قديمة ، وصحيح أنها تصان جيداً ولكن هذا لايمنع أن تقرر أنها قديمة وكذلك الطرق واللوحات التى عليها ، وصحيح أن كل الأمور تسير أقرب ما يكون إلى الكمال ولكن مع شىء من الجهد الكثير يبذلونه .. أقرب لك الصورة فأقول هل ترى رجلاً محافظاً عنده سيارة عمرها عشر سنوات ، يُعنّى بها ويصونها ويحافظ عليها ولايستعملها كثيراً ، وليس فيها عيب واحد ! ولكنها مع ذلك لن تكون على نفس قدم المساواة مع السيارت الأخرى التى خرجت من مصنعها هذا العام .

وهكذا حال الأنجليز أيضاً فى سياراتهم ، كثير من علماءهم ورجالهم البارزين يحتفظون بسيارات ممتازة جداً ، ولكنها لها من العمر سبع سنوات أو عشر سنوات ، وتسألهم ، فيقولون أنهم لايقدرون على أثمان الجديدة .. قارن هذا مثلا بحال ألمانيا الغربية التى سنت قانوناً يجعل إبقاء السيارة مع صاحبها بعد عامين أو ثلاثة شيئاً مكلفاً لأنه عليه أن يصونها بكل أجزائها فى ورشة مكلفة وأن يثبت فعاليتها المثلى وأن يدفع عليها ضرائب باهظة .. وكل هذا يدفع الألمان إلى أن يستحدثوا موديلاتهم دائماً ، فهى أوفر لهم ، ثم تذهب سياراتهم (القديمة فى نظر قانونهم) الجديدة فى نظر كل الدنيا إلى كل الدنيا تسعد بها وتنعم ! ويتسابق بها شبابنا على الطرق ! .

* * *

مثل هذا الفتى فى مثل هذه السن بل كان الأقرب أن تتوقعه لم يتزوج بعد ! .

كان ستيفن شاباً يافعاً ، تظهر على محياه على حد تعبير كتابنا – علامات النجابة ، وقد حاولت أن أوجهه إلى دراسة الطب ، واستعنت على ذلك بالأمريكان ، وتركتهم يحدثونه عن مكانة الطبيب هناك وأمواله ووجاهته ، ولكن يبدو أن الوقت كان متأخراً ، فقد عاد الفتى كما أخبرنى والده من شركة الكمبيوتر التى اشترى منها كمبيوتره الشخصى الصغير ، إذن كان الفتى فى عزمه على دراسة الفيزياء جاداً ، وفى تخطيطه لمستقبله أكثر جدية . تسألنى كم من أطبائنا الشباب يملكون أو يعتزمون شراء الكمبيوتر الشخصى ؟ .. إسأل وقل لى !! .

* * *

أما الأستاذ لاكانى ، فرجل من رجال الإحصاء ، كثير الكلام ، ولكن كلامه مع ذلك يحمل كثيرا من المعانى ، ولهذا فإن الرأى فى كثرة كلامه يختلف ، بين تقدير البعض ، واعتراض البعض ، على أن كلاً من الفريقين يود لو قلل هذا الكلام .

يؤمن بما يعتقد ، ويود لو آمن الناس بما يعتقده ، ولكن هيهات للناس أن يؤمنوا فى خمس دقائق بما آمن به رجل مثله بعد خمسين عاماً .

كثيراً ماتقوده سلسلة أفكاره اللفظية إلى كثير من الصواب العلمى ، فيدهش هو نفسه قبل أن يدهش مشاركوه ، ألقى علينا ذات ليلة حديثاً عن(الديفرستى) (Diversity) وأكثر من استعمال المعادلات الرياضية وترتيبها على بعضها بالقدر الذى يثير الأعصاب . ثم حاول فى نهاية محاضرته أن يبسط الأمور (كان قد أعد المحاضرة هكذا سلفاً .. حتى لايتبادر إلى الذهن أنه حاول أن يبسط بعدما أحس بشعور الحاضرين بالتعقيد) ، فأخرج لنا من كيس كان معه علبة بسكويت وعلبة كيك ، وظننا أنه سيؤلف قلوبنا بهذا بعد محاضرته ، ولكنه أخرج ورقة ورسم عليها رأس إنسان ، ووضعها على البرجكتور وجعل من البسكويت فمه وأنفه وإحدى العينين ، ثم وضع الكيكة فى مكان العين الأخرى ، وقال : أنظروا إلى الصورة تجدون ظلاً ، تظنون أن العينين شىء واحد لأن ظلهما واحد .. على حين أن الحقيقة كما ترونها أن هذه بسكوتة مسطحة ، وأن هذه كيكة لها أبعاد .. ولكن الظن يوحى بأنهما شىء واحد !! .

حين انتهى الأستاذ لاكانى من محاضرته كان أول تعليق هو تعليق الدكتور زوزى الإيطالى الذى قال له : أعتقد ياسيدى أن وسائلك التعليمية (السمعية البصرية Audio visual) كانت مكلفة جداً .

* * *

لاتسألنى عن هذا النور الذى يغمر وجه الدكتور هانز الألمانى ، رجل طيب بكل ماقد تعنى الكلمة ، هادىء الطبع ، خفيض الصوت ، دمث الأخلاق ، قليل التعليقات ، فإذا علق انشرحت الصدور لتعليقه (هذا إذا كنا على مائدة الطعام) أو وافقت العقول على أفكاره (إذا كنا على مائدة العمل) .

قادنا الحديث إلى التدخين ، فأظهر لى عظيم التقدير لأنى لم أحاول التدخين ، وقال أنه ظل يدخن ١٥ عاماً ثم أكتشف أن هذا كان منتهى الغباء منه !.

* * *

أما صديقى العظيم الرجل التركى الطيب الدكتور مصطفى أوزو (المسلم الثانى فى المؤتمر) فكانت له لغة أقرب مايكون إلى لغة ممثلينا الذين يقومون

بدور الأتراك فى أفلامنا ومسلسلاتنا المصرية الشهيرة ، ولقد كنت فى قرارة نفسى أعجب من هذه اللغة ولاأفهم من أين أتو بهذه اللكنة الثقيلة ؟ خصوصاً وقد رأيت كثير من الأتراك من قبل فلم ألحظ على لغتهم هذه اللكنة وكنت أعتقد أنهم فعلوا بلغة الأتراك مافعلوا بلغة الصعايدة ، ولكنى بعد ثلاثة أو أربعة أيام من الحديث والجلوس إلى زميلنا التركى آمنت أنى كنت أظلم أهل الفن فى مصر .

حدثنى عن القروش التركية القديمة . كانت الليرة مائة قرش ، مع أن الليرة التركية نفسها لاوجود لها اليوم ولاتستعمل ، وأصغر عملاتهم خمس ليرات تكفى بالكاد لشراء مشط كبريت . والدولار يساوى ٢٥٠ ليرة تقريباً ، فتصور القرش التركى هذا الذى يساوى واحد على خمسة وعشرين ألف جزء من الدولار !! كنت أعجب لليرة الايطالية التى تساوى سبعة أعشار أو ستة أعشار البنس الأمريكى ، فوجدت الليرة التركية تساوى أربعة أعشار البنس الأمريكى ، وكان لها أصول أو أبناء مائة بالكمال من القروش .

على أن الغريب من أمر العملة التركية هو إفراطهم فى منحها حقها من البنكنوت ، والمائة ليرة كبيرة الحجم جداً ولكنها لاتساوى نصف دولار والألف ليرة فى حجم ضعف ورقة العملة الأمريكية (التى قد تكون ألف دولار) ولكنها لاتساوى إلا أربعة دولارات ..ولعلك الآن تؤمن أن المثل القائل بأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى قد لا يستحق من القيمة ألف ليرة تريكة !! .

ولكن ألطف ماتركه الزميل التركى فينا من أثر كانت تلك التى قصها علينا حين فتحوا الباب ونحن نعمل على الكمبيوتر المجاور له ، حتى يزيل رائحة التدخين ، وانقسمنا جميعاً إلى فريق لفتح الباب ومشجع لإعادة إغلاقه .. حين ذاك قص علينا التركى أن امرأتين كانتا فى أتوبيس ، وحدثه نفس الموقف ، فقالت إحداهما : إذا لم يفتح الشباك فسوف أموت ، وقالت الأخرى : إذا لم يغلق الشباك فسوف أموت ، فقال أحد الركاب حسناً نفتح الشباك فتموت إولاهما ثم نعود فنغلقه فتموت الأخرى فتتخلص من إمرأتين !! ، مكسب كبير أن تتخلص من إمرأتين إلى الأبد !! وفى خمس دقائق فقط !! .

فيما كنا نعمل على الكمبيوتر ، جاءتنا إشارة إلى أن عنصرين من العناصر يتشابهان على الأبنية التى بنيناها فى ٩٣٪ من الأحوال . وكان معنى ذلك كما فهمت ، أن نبحث لهذين العنصرين عن [بناء] يفرق بينهما .. وهكذا فهمت ، وهكذا كانت الحقيقة ، وشرحت لزميلنا الإيطالى على الكمبيوتر ولكن بدون جدوى ، وعلى طريقة الفتاكة الإيطالية المصرية سأل الكمبيوتر أن يكتب عليه بناء جديداً !! ، فلم يمانع الكمبيوتر ! وتقبل البناء ! ، ولم يكن فى البناء شيء جديد إلا أن زميلنا الإيطالى غيَّر الدرجة التى كان أعطاها لأحد العناصر فقط فى محاولة منه (كما أتاح له عقله أن يفكر) أن يخدع الكمبيوتر أو يصرفه عن ملاحظاته التى خرج بها .. وكأنه لايدرى أن الكمبيوتر لايعطيك إلا ماتعطيه ..ولكنها فتاكة الطليان حتى مع الكمبيوتر الآلة التى لاتملك من أمر نفسها شيئاً !! ماذاكانت النتيجة : قال له الكمبيوتر إن البناء الجديد يتشابه مع البناء السابق فى ٩٣٪ فلم يجد صاحبنا مايفعله ، وضرب الزرار للكمبيوتر ليستمر ، فجاءته نفس النتيجة السابقة ولكن مع إختلاف النسبة .. وظللت أحاول عشرين دقيقة مع العالم الإيطالى أقنعه أن معنى ذلك أن الكمبيوتر يريده أن يبحث إذن عن بناء جديد يفرق بين هذين العنصرين بالذات وهو لايقتنع ، إنما يريد من الكمبيوتر أن يعدد له ثلاث عناصر من العناصر التى أعطاها هو للكمبيوتر والتى هى تحت يده ليختار بناء يفرق بينها .. أحاول أن أقنعه أن الكمبيوتر فى مرحلة متقدمة يترك هذا الأسلوب ويسأل بأسلوب آخر تبعاً للحقائق التى صارت فيه والتى وضعها العالم الإيطالى بنفسه !! ، وهو لايقتنع إنما يريد أن يسأل الكمبيوتر بنفس الطريقة الأولى ! ياسيدى مالفرق ؟. المهم أن تختار بناء جديداً وتستمر ، وضرب الزرار ، فسارت الأمور ولكن عقل صاحبنا هناك فى جزيرة من الجزر الإيطالية يريد أن آت له بأحد علماء الجزر البريطانية ليؤكد له ماأقول أو ليقول الصواب !! وبمنتهى الثقة أحضرت فيليب وتركت العالم الإيطالى يسأل فسمع نفس الإجابة مغلفة بلهجة من الدهشة والإستنكار أن يغيب فهم هذه البديهة على المجموعة كلها ، عندئذ لم نجد بداً من أن تقول له الحقيقة .

قد يكون لى أن أدعى أننى أؤمن – ولعل هذا بفضل إيمانى بالله – أن

المتعامل مع الحقائق العلمية سواء فى جسم المريض أو على شاشة الكمبيوتر أو فى نتائج معمل الفيزياء أو الكيمياء ، أو فى تشريح حيوان جديد على العلم ، أو فى وصف سلالة من النبات ، وحتى فى كتابة تاريخ بلد أو حرب أو علم من الأعلام بأسلوب علمى أؤمن أن النجاح فى كل هذا مرهون بمدى إيمانك بما أمامك من حقائق ، فإذا غلبت هذا الإيمان بالحقائق على اقتناعك الذكى (أو الغبى) بالمعلومات أو الفروض التى فى بالك أو ذهنك حالفك النجاح ، وإلا فلن يحالفك النجاح أبداً .. أؤمن بهذا كل الإيمان ، ولعل الإيمان بالله هو خير مايقوى هذا الإيمان ، ولاأظن أن فى هذا دردشة إنما هى قمة الطموح إلى النجاح .

الإيمان بالغيب نعمة من نعم الله على عباده المؤمنين ، لايقدرها المرء إلا إذا إنتابته الناحية المرضية منها ، تماما كالصحة على رؤوس الأصحاء هى تاج لايراه إلا المرضى .

* * *

أما العالم النرويجى فرجل كامل ، هادىء ، دمث الأخلاق ، خفيض الصوت ، لايبخل عليك (حين يستمع إليك) بالموافقة على ماتقول ، وإبداء الملاحظات اللطيفة فى تواضع ، وتدخل عابر ، يستمع كثيراً على عادة أهل الفكر من العلماء ، ويتحدث بدقة على عادة أهل الصواب من العلماء ، حركات يده محسوبة ، وكذلك حركات وجهه ، ولكن أصابعه وعضلات فمه ورقبته هى التى تقوم بمساعدته فى التعبير ! زار القاهرة ضيفاً على جامعة عين شمس .. ويحدثك عن وقته فيها فلايذكر إلا كل خير ، فيعكس لك بذلك معدنه الأصيل .

* * *

أما أندريكو الإيطالى الثانى فأطّيب من صاحبه ، وأهدأ طبعاً ، وأكثر تواضعاًوكثيراً مايقول أثناء المناقشات إنه لايستطيع التعبير عن أفكاره تماماً – يقصد بالإنجليزية – وهو ملتح ، قوى البنية ، يبدو عليه أنه من أولئك الذين يأخذون العلم مهنة ، ويعطونه بعض وقتهم ، يصير عندهم بعد ذلك متسع من

الوقت للراحة أو لممارسة الرياضة ، ومع هذا فقد كان دائب العمل على الكمبيوتر طوال المؤتمر ، وكان أكثر مايكون ضحكاً على النكات اللطيفة التى يحكيها زميله الإيطالى . وقد كانت أبرز هذه النكات ثلاث ، واحدة على ألمانى ، والثانية على يابانى ، والثالثة على تركى من الأخوان المسلمين .

* * *

من إنجلترا كان معنا ستة ، الرئيسان ، والدكتور فليب الشاب الطيب ، وكذلك كان فى – الطيابة – الدكتور جيرى ، وهو متخصص فى بيئة النبات ، ولايزال يسكن إلى الجنوب من مانستر ويسافر إلى معهده كل أسبوع حيث يقضى أيام الأسبوع الأولى فى أغلب الأحيان بعيداً عن أسرته ، المؤلفة من زوجته وولد صغير ، وقد جاءته زوجته ، وقضت معنا آخر أيام الأسبوع ، ثم غادرت صباح الأحد لتريح حماتها من عناء رعاية إبنها ، وقد حدثتنا أنها لاتعمل الآن ، وأنها ترى صعوبة حقيقية فى الجمع بين ربابة البيت والعمل خارج البيت !! فلتسمع سيداتنا .

ولكن الدكتور فروزى أكد هذه الحقيقة فيما يتعلق بزوجته التى فرغت هى الأخرى لرعاية ولديها البنت والصبى التوأم . الطريف أيضاً من أمر الدكتور فروزى أنه يسجل صوت إبنه كل عام فى عيد ميلاده ، وعنده الشريط الذى يحوى هذه الأصوات .. هكذا مضى الحديث بين ثلاثتنا حين كنا فى طريقنا إلى مسرح الغابة فى سيارة الدكتور جيرى .

الإنجليزى الخامس هو أقلهم قضاء وقت معنا ، تركنا على ما أذكر يوم الجمعة والسبت ثم عاد الأثنين ليتركنا إلى النهاية . وهو نحيل ، ذو أفكار مركزة ، نشيط ، ساهم بكثير من الجهد فى مجموعات العمل التى حضر فيها .

أما الأنجليزى السادس فهو مستر لاكان الذى حدثتك عنه وهو من أصل عربى هندى .

* * *

الأمريكان الأربعة .. أطيبهم الدكتور فولز ، يعمل مع أبحاث الفضاء ، ومقره فى ميتشجن ، رجل طيب ممتلىء الجسم ، هادىء الصوت ، حكيم ،

على خلق كريم ، دار حديثى معه حول صعوده الفضاء !! ، وقد أتيحت له الفرصة بالفعل ، ولكنه أراد أن يحتفظ بنفسه لأولاده !! .

* * *

- دافيد إيفانز هو الأمريكانى الثانى ، أستاذ فى جامعة بيروت ، متزوج من لبنانية ، رافقته فى المؤتمر ، أصبح خبيراً بأمور لبنان وقبرص ، وحجز الطائرة إلى قبرص ومن قبرص ، وكيف يكون فى المطار قبل موعد الطائرة بساعتين على الأقل ، كان الوحيد الذى اصطحب زوجته إلى المؤتمر ، تخصصه فى علاقات الموت Predator/Prey relationships ، وهو تخصص يناسب بيروت تماما !! .

الأمريكى الثالث وارلتون ، وسيم الوجه ولو حلق لحيته لأصبح أوسم ، شاب ممتلىء صحة وعافية .

الأمريكى الرابع ماسارو من أصل إيطالى يعيش فى بنسلفانيا ، يضحك كثيراً من نكات الإيطالى الأول . يدخن الغليون . واسع الأفق ، طيب القلب ، له ابن أوشك على بدء دراسة الطب ، وينوى أن يدرسه فى إيطاليا ، أقول لأنها رخيصة فيصحح لى ويقول لأن البنت التى يحبها من شمال إيطاليا !! .

* * *

كان هناك إثنان من النرويج أما الأكبر وهو أستاذ الزراعة فقد حدثتك عنه ، وأما الثانى وهو لايزال دكتوراً فحسب (أى مايناظر مدرس) فمشتعل نشاطاً ، رافقنى من مانشستر إلى الفندق عند وصولى ، كان أول من غادرنا بإنتهاء الأسبوع الأول ، يلعب فى لحيته وفى شعر رأسه ثم يعبث بأفكارنا ، له تجديد فى الأفكار ، ونشاط فى وضع البرامج .

* * *

فاندجا النيبالى صعيدى فى كل شىء ووجهة أقرب مايكون إلى وجوه أهل أسيوط ، حتى تعليقه عندما سألناه الحديث عن مشكلات البيئة فى نيبال ، ومن له اليد الطولى فى تقرير أمور البيئة ؟ أجاب إن الذين يقررون الأمور من طبقة غير طبقة الشعب ، ولهذا لايحسون بالبيئة ! يالله ، كالكلام الذى فى كتبنا عن ملوك قبل الثورة!! الله يرحم الجميع .

كتب للمؤلف :

١ – الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً . (وهو الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب العربى عام ١٩٧٨ . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، الكتاب الأول فى سلسلة كتابات جديدة) .

٢ – مشرفة بين الذرة والذروة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٠ (وقد نال عنه المؤلف جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم) .

٣ – كلمات القرآن التى لا نستعملها .. (وهو دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية) ، دار الأطباء ، ١٩٨٤ .

٤ – يرحمهم الله (وهو مجموعة كلمات في تأبين بعض الشخصيات الراحلة) وكالة الأهرام للتوزيع ، ١٩٨٤ .

٥ – الدكتور أحمد زكى ، حياته ، فكره ، وأدبه . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ (وهو الكتاب الذى أستأنفت به الهيئة إصدار سلسلة أعلام العرب) .

٦ – من بين سطور حياتنا الأدبية ، (دراسات نقدية) دار الأطباء ، ١٩٨٤ .

٧ – مايسترو العبور المشير أحمد إسماعيل ، وكالة الأهرام للتوزيع .

٨ – سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض ، وكالة الأهرام للتوزيع .

٩ – الدكتور على باشا إبراهيم يد من حرير ويد من حديد ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٥ .

١٠ – الدكتور سليمان عزمى ، أول أطبائنا الباطنيين ، سلسلة أعلام العرب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .

١١ – التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة ، الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

١٢ – الدكتور نجيب محفوظ : رائد أمراض النساء والتوليد فى مصر ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .

١٣ – دليل الخبرات الطبية القومية ، الجزء الأول : الجامعات ، مركز الاعلام والنشر الطبى ، (الجمعية المصرية للأطباء الشبان) ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

١٤ – الصحة والطب والعلاج فى مصر ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٧ .

١٥ – مجلة الثقافة (١٩٣٩ – ١٩٥٢) : تعريف وفهرسة وتوثيق .

١٦ – رحلات شاب مسلم .

رقم الايداع ٨٧/٨٥٦٨
الترقيم الدولى ٢٠ ـ ١٤٣١ ـ ٩٧٧